د. عبدالجبار الرفاعي

مسرّات القراءة ومخاض الكتابة

فصل من سيرة كاتب

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات تكوين | الكتابة عن الكتابة
TAKWEEN PUBLISHING

مسرّات القراءة ومخاض الكتابة

فصل من سيرة كاتب

د. عبد الجبار الرفاعي

مكتبة سُر مَن قرأ

مسرّات القراءة ومخاض الكتابة

فصل من سيرة كاتب

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكتابة عن الكتابة

الكاتب: د. عبد الجبار الرفاعي
عنوان الكتاب: مسرّات القراءة ومخاض الكتابة: فصل من سيرة كاتب

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

ر.د.م.ك: 978-9922-691-44-2
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takweenkw
takween.publishing@gmail.com
TakweenPH
takween_publishing
www.takweenkw.com

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045
Dar alrafidain
daralrafidain@yahoo.com
Dar.alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar alrafidain
www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدمة 7
محطات القراءة المبكرة 13
الوقوع في أسر الكتب 21
القراءة العشوائية 29
تبذير العمر بقراءة كتابات تُفقِر العقل 35
مكتباتنا أرشيف ذكرياتنا 43
كلما احترقت مكتبة انطفأ شيءٌ من نور العالم 49
لم تعد الحاجةُ للكتاب اليوم كما كانت 53
الكتابة بوصفها مِرَانًا متواصلًا 61
تعلمت من الكتابة ما تعلمته من القراءة وأكثر 67
الكتابة بوصفها تجربة وجود 75
لا قيمة لكتابة تتنكر للاعتراف 81
أن نكتب يعني أن نختلف 89
الترجمة بوصفها ضربًا من الكتابة 95
غواية الكتابة 99
الكتابة بوصفها سلطة 107
الكتابة الأيديولوجية 113
تفسيرُ كلِّ شيء بشيءٍ واحد 121
الكتابة بوصفها امتحانًا للضمير الأخلاقي 129

أنا مدين لكلِّ مَن يقرأ كتاباتي 139
الرهان على الكتابة اليوم 147
الكتابة في عصر الإنترنت 155
لا نتعلم الكتابة إلا بالكتابة 163
مواجع الكتابة 171
المراجع 179

مقدمة مكتبة سُر مَن قرأ

أنا قارئٌ قبل كلِّ شيء وبعد كلِّ شيء. لم تمنحني القراءةُ إجازةً ليومٍ واحد في حياتي، لم أجد نفسي خارج أسر القراءة، وأظن أني لن أتوقف مادمتُ حيًا. قراءتي تتغير بتغيرِ الواقع، والوعي، وتغيرِ المزاج، وعوامل أخرى خفية لا أدركها تفعل فعلَها في انتقاءِ نصوصٍ واستبعادِ أخرى. رفقةُ الورق والكتب استغرقتْ معظمَ أيامي، أنفقتُ من سنوات عمري معها أكثرَ بكثيرٍ مما أنفقتُ برفقة البشر. لو فرضتْ عليّ الأقدارُ أن أختار العيشَ مع الكتب أو البشر لاخترتُ العيشَ مع الكتب. أنا كائن لا أطيق العيشَ بلا منبعٍ للمعنى في حياتي، القراءة كانت ومازالت ترفد حياتي بأعذب معانيها. بعد هذه الخبرة في القراءة أصبح القارئُ كاتبًا، غير أن القراءةَ مازالت تلازمه وتفرض حضورَها كأولويةٍ على الكتابة، لا تصمد مواعيدُ الكتابة وجداولُها الزمنية لحظة يتّقد شغفُ القراءة. حين أضجر من الكتابةِ استريح بالقراءة، وحين أفقد التركيزَ بعد ساعاتٍ من القراءة، لا يستفيق وعيي إلا بالقراءة.

لا أستطيع إحصاءَ ما حصدتُه من مكاسب القراءة والكتابة، بالقراءة والكتابة استطعتُ أن أفكر خارج الأطر المغلقة، أحترم كلَّ رؤية عقلانية. لكن لا أعبأ بالترهيب الذي يمارسه بعضُ

المتحدثين والكتّاب، ممن يحاولون إحباطَك برأي من التراث، أو رؤيةٍ لفيلسوف يوناني أو فيلسوف حديث، أو نصٍّ لأديب شهير، أو قولٍ لمفكر معروف. تعلمتُ من الكتابة ما هو أبعد مدى وأدقّ من القراءة، استطعتُ أن أصنع من كلماتٍ مبعثرة معاني مُلهِمة لحياتي. تعلمتُ من الكتابة الوضوح، ورسمَ الحدود بين الأشياء، واكتشافَ جغرافيا المفاهيم وخرائطها، وحرّرتُ ذهني من وصايات الفلاسفة والمفكرين والكتّاب بمختلف أساليبهم البلاغية، وأدواتِهم اللغوية، ومراوغاتِ كلماتهم.كانت الكتابةُ ومازالت منبعًا غزيرًا لتوالد أسئلةٍ حارقة لما تراكم في ذهني من أوهام، تولد منها أسئلةٌ أشدّ احتراقًا.كلما فكرتُ بعمق وأنا أكتب ضاق فضاءُ الأجوبة واتسعت الأسئلة، ذلك ما يجعلني أتهيّب اقتحامَ الكتابة، وأحاول ألوذ بخيمة القراءة.

يرى القارئُ في هذا الكتاب تفاصيلَ متنوعة عن رحلتي الطويلة بمعية القراءة وممارسة الكتابة. وتكشف له هذه الأوراقُ شيئًا من ذكريات هذه الرفقةِ الشيقةِ في القراءة والشاقةِ في الكتابة، وشيئا مما تعلمتُه من دروسهما الثمينة. ما ورد فيها فصلٌ من محطات حياتي المتنوعة، اخترتُ كتابةَ هذا الفصل قبل غيره من السيرة الذاتية، بوصفه يعبّر عن أثمن ما عشتُه في حياتي. لا أنكر أن صنفًا من الكتب نقلني من يقينٍ مغلق إلى لايقين، وزحزح وثوقياتٍ متجذرة كالكائنات المتحجرة المنهكة لذهني، تلك الوثوقياتُ أخلدتْ تفكيري للنوم. بعد يقظة الذهن تخفّف من أثقال مكثتْ غاطسةً مدة ليست طويلة في منطقةٍ مظلمة، لم يفضحها إلا نورُ التفكير

العقلاني.كأن الذهنَ لحظة أزاحها تحرّك بصيرورة متواصلة، لا يلبث طويلًا، إن مكث في محطة، إلا ويغادرها عاجلًا في رحلةٍ لا تتوقف إلى محطةٍ آتية، صار ذهني لا يتطلع للتوقف في المحطات قدر شغفه للسير في الطريق، همُّه المضيّ في رحلة اكتشاف، صار الطريقُ فيها غايتَه لا المحطة. لا يفزعني تساؤل العقل، ولا أخشاه على الإيمان، ولم أحرص يومًا على حماية إيماني بتعطيلِ التفكير العقلاني النقدي. لم تعبث قراءتي وأسئلتي المتواصلة بأخلاقي، ولا بسكينةِ الروح، ولا بطمأنينةِ القلب. مَن يختزل الإنسانَ ببُعدٍ واحد تبدو له هذه واحدةٌ من المفارقات، أدرك جيدًا أنها تظهر بنظرةٍ عاجلة كمفارقة، وإن كانت النظرةُ المتأنية تكشف عن قدرةِ الطبيعة الإنسانية على استيعابِ الأضداد.

تعلمتُ الكتابةَ بالكتابة، لا يتكون الكاتبُ بالتوصيات الساذجة الجاهزة، على طريقة: «كيف تتعلم اللغة الإنجليزية بسبعة أيام». لا أعرف كاتبًا عظيمًا ولد في مدارس تدريب وورش كتابة. الكتابة الحقيقية عملية إبداعية تتطلب موهبةً، وشخصيةً صبورة، مضافًا إلى قراءاتٍ نوعية متواصلة، وتفكيرٍ هادئ، وجَلَدٍ على تكرارِ تمارين الكتابة المملة، وعدمِ التعجّل بالنشر، والتضحيةِ بكثيرٍ من متع الحياة الحسية الآنية.

قراءة الكتاب الورقي ليست كلَّ شيء في تحصيلِ المعرفة وفهمِ العالَم، وليس من لا يقرأ الكتابَ الورقي اليوم لا يفهمُ شيئًا في العالَم. تتضاعف طرائقُ تلقي المعرفة، وتتبدّل وسائلُ القراءة وتتنوع أساليبُها، وتتضاعف باضطرادٍ أعدادُ القراء في عصر الإنترنت. قبل

الإنترنت كان عددُ القراء محدودًا، صار أغلبُ مَن يستعمل تطبيقات وسائل التواصل يقرأ اليوم. لم يعد مفهومُ القراءة ضيقًا لا يعرف فضاءً خارج الورق، وسائلُ التواصل الجديدة وسّعتْ هذا المفهومَ وأضافت طرائقَ جديدة للقراءة، اتسعتْ فيها آفاقُها بعد أن تشارك السمعُ والبصرُ الوظيفةَ ذاتها. أكثر من تطبيق اليوم تحضر فيه الصورُ والمسموعاتُ بكثافة، وأحيانًا تأثيرها أبلغ من الكلمات، ويفوق عددُ المشتركين فيه ملياري إنسان. تطبيقات الذكاءُ الاصطناعي تعدنا بإضافات مبتكرة، تتغير فيها وسائلُ تلقي المعرفة، ولا ندري ماذا وكيف تكون غدًا. مفهوم القراءة يواكب تلك التطبيقات، ويتكيف وفقًا لها ولكيفية استعمال القراء لها في تلقي المعرفة بصريًا وسمعيًا،كلُّ قارئ يختار طريقتَه المتناغمة واحتياجاتِه ورغباتِه وما ينجذب إليه ويتذوقه. مَن يستعمل هذه التطبيقات يمكن أن يتخذ النمطَ الذي يتوافق معه في القراءة، مَن يرى الكلمات يقرأها، مَن يستمع للنصوص والكتب المسجلة صوتيًا يمارس نمطًا ثانيًا من القراءة، مَن يشاهد الصورَ ويتأملها يمارس نمطًا ثالثًا من القراءة، مَن يرى مقاطعَ الفيديو وينصت إليها يمارس نمطًا رابعًا من القراءة. أعدادُ القراء اليوم كبيرة جدًا، الأطفال يبدأون باستعمال الأجهزة اللوحية وتطبيقات وسائل التواصل قبل أن يتعلموا القراءةَ والكتابةَ في المدرسة. يقرأون بطريقة تتناسب ومرحلتَهم العمرية،كثيرٌ منهم يستعمل هذه الأجهزةَ بعمر لا يتجاوز السنتين، ويدمن أغلبُهم عليها بشكلٍ مدهش، رأيتُهم لحظة يستفيقون صباحًا إلى أن يناموا ليلًا لا يغادرونها.

كلّما اتسع مجالُ القراءة اتسعتْ بموازاته الكتابةُ بأنماطها وأوعيتها الجديدة. إذا ازداد علمُ الإنسان أدرك أن مجهولاته لا حصرَ لها، وتوالدت تبعًا لذلك أسئلتُه المتنوعة، وتنوعت وتعمقت إجاباتُه. لن تموت القراءةُ والكتابة مادام الإنسانُ بحاجة إلى التعلّمِ واكتسابِ المعرفة، وإنتاجِ معنى لحياته، وحاجته إلى التسلية. ما كتبه الإنسانُ منذ اكتشاف الكتابة بكلِّ مراحل تاريخه ليس كثيرًا، ما لم يكتبه الإنسانُ ولم تخطّه حروفُه وتستوعبه كلماتُه لا حدود له. لم يتمكن أبرعُ الكتّاب من التعبير عن حالاتٍ تختنق في معانيها الكلمات. لا أتمكن من التعبير عن كلِّ ما تختزنه ذاكرتي، ولا يطيق وعاءُ اللغة جمرةَ ألمي لحظة يبكي قلبي. لا أستطيع البكاءَ أحيانًا على الرغم مما أصطلي فيه كالنار في داخلي. تخرس الكلماتُ لو أرادت النفسُ التعبيرَ عن كلِّ شيء في أعماقها. مثلما تعجز الكلماتُ عن القبض على معاني آلامنا تعجز عن تصوير حالاتِ ابتهاجنا وفرحِ قلوبنا.

لا يتحقق التفكيرُ والمعرفة بكلِّ قراءة. القراءة الجادّة من بواعث التفكير الخلّاق وإنتاج المعرفة، القراءة المحرِّضة على التساؤل والتفكير العميق تمكّن الذهنَ من التعرّف على حدود الأشياء والمفاهيم، وتوقظ قدراتِه على اكتشاف ما تشترك وما تختلف فيه عن غيرها. هذا النوع من القراءة يثير التساؤلَ، ويزحزح المسلّمات في الذهن، وينقله من الركون إلى بداهاتٍ ليست بديهية، ويقينياتٍ غير مبرَهنة، وقناعاتٍ جزافية، إلى إعادةِ النظر فيها وإخضاعِها للمراجعة ومساءلتها، وتقصي بواعث القول فيها وشيوعِها، وعوامل رسوخِها.

كلماتُ هذا الكتاب تدفقت كسيل، بلا توقفٍ وبلا معاندة. أرسلتُ الكتابَ للنشر بعد الفراغ منه، اكتمل الإخراج، فكتبتُ هذه المقدمة فورًا، بعد كتابتها سرعان ما انهزمت ثقتي بكلماتي، ضجرتُ فتركتُ الكتابَ عدة أيام، تريثتُ اسبوعين كي أعود للتحرير النهائي للمقدمة، لم أعد إلا بعد أن شعرتُ بالحرج من الناشر لتأخر الكتاب.

عبد الجبار الرفاعي

بغداد 1-7-2023

- 1 -

محطات القراءة المبكرة

لم أرَ في المرحلة الابتدائية كتابًا غير الكتب المدرسية، ولا أتذكرُ أني رأيتُ كتابًا في بيتِ أحدٍ في قريتنا، الفلاحون من جيل آبائنا لا يقرأون ولا يكتبون. عندما كان أخي الكبير يذهب لزيارة العتبات المقدّسة، يجلب معه كراساتٍ لقصص تُباع في أروقة العتبات، وكراساتِ الدعاء والزيارة. قرأتُ قصصَ: المياسة والمقداد، والسندباد البحري، وغزوة بئر ذات العلم، وعنترة بن شداد... وغيرها. أول قصة قرأتُها أشعرتني بسحرٍ غريب للقراءة يتغلغل في كياني، وأغرقتْ ذهني برحلةٍ خيالية مدهشة بمعية بطل الحكاية. منذ ذلك الحين هيمنت القراءةُ على مشاعري، بشكلٍ لا أقوى معه على التخلصِ منها والانصرافِ إلى شؤون حياتي المتنوعة. المطالعة سياحةٌ مؤنِسة،كلّما قرأتُ كراسةً من هذه القصص يتضاعف ولعي بالقراءة، بنحوٍ صار هذا الولعُ يتعاظم إلى درجة عطّل معه ولادةَ الاستعدادات المتنوعة الكامنة بداخلي. بدأ احتياجي للكتابِ يتنامى، وصرتُ أشعر بأنه يحميني من الوحدةِ ووحشةِ الحياة واكتئابِ غياب الأحبة. هذا النوعُ من تغلّب الكتاب على كيانك يجعل امتلاكَه أثمن الأماني وأمضاها أثرًا في حياتك. نشأت مكتبتي بهذه الكراساتِ وأشباهِها، أصبحتُ أكرّر مطالعتَها، وأضيف لها

ببطءٍ وعلى فترات متباعدة ما أظفر به. ما يُضاف لمجموعتي الفقيرة من كراساتٍ أطالعها، استظهر شيئًا من عباراته وفقراته. أكرّر التحدّثَ بهذه القصص لأمي وأهلي وزملائي التلامذة،كأني تلبستُ حرفة حكواتي القرية. لم تكن توجد في ستينيات القرن الماضي مكتبةٌ لبيع الكتب في مدينتَي: قلعة سكر أو الرفاعي حيث يكون تسوّقنا. فالتسوق متباعد الفترات، لا يحدث إلا بضعةَ مرات في السنة، لا مالَ لدى الفلاحين، لا طريقَ مواصلات يربط القريةَ بالمدينة، لا وسائلَ نقلٍ غير الخيل، ولا يصطحب الآباءُ الأبناءَ للمدينة إلا في حالات الضرورة القصوى.

في الشطرة بدأتُ المطالعةَ الجادة، وفيها ولدتُ ثقافيًا، وتشكلت النواةُ الجنينية لوعيي في هذه المدينة المعروفة منذ منتصف القرن الماضي بفاعليتها السياسية والثقافية. اكتسبتُ بفضل العيش فيها شيئًا من تقاليد المدن وتحضرها، وتذوقتُ بهجةَ ألقها تلك الأيام. وفّر لي السكنُ المخصّص للتلامذة، وتأمينُ متطلبات الطعام والاحتياجات الأساسية بشكل مناسب، نمطًا بديلًا لعيش الكفاف الذي لازمني وأنهكني منذ بداية حياتي. وجدتُ نفسي وسط فضاءٍ شبابي حيوي، تثريه مواهبُ متنوعة لتلامذةٍ وفدوا من مختلف أقضية ونواحي وقرى محافظة ذي قار جنوب العراق. ثانوية زراعة أكَد في الشطرة هي الثانوية المهنية الوحيدة في المحافظة ذلك الوقت. تتفاعل الحياةُ الثقافية في سكن طلابها بدينامية خلّاقة، تتنافس فيها اهتماماتٌ أدبية وفنية وثقافية بهامش حرية رحب، فتحفّز من لديه شغفٌ بالمعرفة وحرصٌ على القراءة للاندماج في إطار هذه الدينامية. عفوية هذه الحركة جذابة، لا التزامات غير الدراسة، لا اجتماعات، لا حلقات منظمة تفرض

واجباتِها الرتيبة، لا أحزاب معلنة تحتكر المواهبَ وتعطلها، وتسكب التفكيرَ وتجمده في أدبياتها المغلقة وقوالبها الأيديولوجية، قلّما كان أحدٌ من الطلاب بدايةَ المرحلة الثانوية ينتمي لحزبٍ سياسي ذلك الزمان. القراءة حرّة، الصداقات تولد بعفوية، وتترسّخ بمزيدٍ من الشوق والعطاء، تحرسها المودة، ولا يهدّدها فهمٌ عميق لتناقضات الإنسان والواقع. يكرّسها الصدقُ والوفاء، ويرسّخها الفهمُ المبسّط لكلِّ شيء. أظن أن هذا النوعَ من الفهم أحدُ ضمانات الصداقة الصادقة، وأظن أن الفطنةَ والفهم العميق لتناقضات الإنسان والواقع، بقدر ما يجعلان الإنسانَ أكثرَ معرفة بالحياة، يمكن أن يفسدا عليه الصداقةَ أحيانًا. الذكاء الفائق يمحو البراءة، عندما يجعل الإنسانَ يتأمل بدقةٍ أبسطَ المواقف والكلمات العفوية، ويحاول أن يفتش عن بواعثها العميقة، وما يمكن أن تضمره من دوافع خفية ونوايا شريرة. الأخلاق الفطرية من عطايا بيئة طلاب الريف التقليدية، كانت هذه الأخلاقُ تحرس الصداقاتِ من العواصف الطائشة والمواقف النزقة، وضمنت حتى اليوم استمرارَ بعضها، وصمودَها أكثر من نصف قرن في مختلف الأحوال والتقلبات والعواصف. ما يربحه الإنسانُ من صداقات المراحل الدراسية الأولية وأيام الشباب أنها الأطول عمرًا؛ فأكثر الصداقات اللاحقة تمحوها الأيامُ بنرجسياتِ بعض الأشخاص المتضخمة، وانفعالاتِهم الطائشة، والتوقعاتِ المبالغ فيها بقدرة الآخر على العطاء العاطفي والمادي اللامحدود مجانًا.

فوجئتُ بداية المرحلة الثانوية سنة 1971 بوجود مكتبةٍ عامة في مدينة الشطرة جنوب العراق، تقع في أقرب محلة لمدرستنا. فرحتُ بالعثور

عليها بدايةَ السنة الأولى من إقامتي في السكن الطلابي. الكتبُ الجديدة الواردة للمكتبة، قبل إيداعها ووضعها على الرفوف، تلبث مدةً معروضة ليتعرّف عليها القراء، تناولتُ كتابًا لمحتُه على رفوف عرض الجديد الوارد للمكتبة. قرأتُ عنوانَه على الغلاف: «لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث»، الجزء الأول، تأليف: د. علي الوردي. لم أسمع بهذا المؤلف من قبل، جلستُ أطالع هذا الكتاب، بهرتني لغةُ الكاتب الواضحة المباشرة،كأنه حكواتي، وشجاعةُ عقله، وتحليلُه للظواهر الاجتماعية المختلفة، وتفسيرُها بطريقة علمية أتعرّف عليها أول مرة في حياتي. آفاق هذا التفسير تتوكأ على عقلانيةٍ نقدية، وجرأةِ تسمية الأشياء بأسمائها، تحاول اختراقَ سطح الظاهرة واكتشافَ ما هو خفيّ من عوامل توليدها. لم يكن في المكتبة العامة غيرُ الجزء الأول تلك الأيام، عندما أكملتُه تنقلتُ بين كتب عديدة. أبلغني أحدُ الأصدقاء أن هذه المكتبة تمت تسويتها بالأرض،كي يشاد على أطلالها مستشفى، تألمت كثيرًا لمصيرها. هذه المكتبة أحد مكونات ذاكرة الثقافة والمثقفين، شخصيًا تقترن الصورةُ الآسرة للشطرة في ضميري بهذه المكتبة. الأرضُ واسعةٌ في هذه المدينة،كان ينبغي أن يُشادَ المستشفى في مكان آخر، وتمكث هذه المكتبة بوصفها مرآة الذاكرة المضيئة للشطرة.كنت أتمنى زيارتها لأجدد نكهة أيامي الجميلة في مدينة حيّة يتدفق فيها الإبداعُ والثقافة والسياسة.

لا أتذكر كتابًا فرضَ حضورَه بعد قراءة الجزء الأول، من «لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث»، غيرَ كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب، الذي قرأتُه بعد سنةٍ من قراءة كتاب الوردي، كنتُ أقرأ أيَّ

كتابٍ أراه أو يدلني شخصٌ عليه، أدركتُ متأخرًا أن «معالم في الطريق» كان نفقًا مظلمًا ومتاهة خطيرة، ضعت في تلك المتاهة مدة، وضاعت قبلي وبعدي أجيالٌ في متاهاتٍ مخيفة، لم يستطع بعضُهم الخروجَ منها كلّ حياته. بعضُهم استدرجه الافتتانُ بمقولات هذا الكتاب وشعاراته وأشباهه فانخراط بجماعات قاتلة.

في الشطرة مكتبةٌ صغيرة لبيع الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية صاحبها حميد ناصر المكنى «حميد أبو الجرايد»، لا تعرض هذه المكتبةُ إلا قليلًا من الكتب للبيع. كثيرٌ من زملائي في الثانوية يهتم بقراءة المجلات، وقليلٌ منهم يهتم بالكتب، كأنها موضةُ شباب ذلك الزمن. في هذا الفضاء شاهدتُ مجلاتٍ لم أسمع بها من قبل، لا أزهد بأية ورقة مطبوعة، يدعوني فضولُ المعرفة لقراءة ما يقع بيدي، لا أتريث بإعلان رغبتي لزملائي باستعارة ما لديهم، ولو لبضع ساعات. اكتشفتُ مجلات فنية كـ «الشبكة» و«الموعد» و«الصياد» وأشباهها، فلم يصطدني شيء منها، فما انجذبتُ يومًا لموضوعاتها أو أغوتني اهتماماتُها بحياة نجوم الفن وتقلبات حياتهم وأحوالهم الخاصة، أدركتُ مبكرًا أن حياةَ الفنان ككلِّ إنسان شأنٌ شخصي. يزعجني التلصّصُ على الحياة الخاصة لأيِّ إنسانٍ واقتحامُ شؤونه الشخصية، مع أن هذا السلوك يتفشى في علاقاتنا الاجتماعية بأساليب مؤذية أحيانًا. وما كان يعنيني الدورُ الفني الذي يقوم به اليوم أو غدًا أيُّ فنان أو فنانة، ذلك ما نأى بي بعيدًا عن أن أكون أحدَ مدمني قراءة الأسبوعيات الفنية، كما هي عادةُ أقراني ممن غرقوا فيها، وعجز أغلبُهم عن الخروج منها لاحقًا إلى عالم الكتاب المتنوع الجميل.

أفتّش عن الكتب لكن لا كلّ كتاب، أقع في فتنة بعضها، ولا أنجذب لبعضها الآخر، لا أعرف البواعثَ الخفية لقبول هذا الكتاب والإعراض عن كتابٍ غيره. لا أعرف من أين يأتي الصبر على قراءة كتبٍ لا أتفاعل معها. كنتُ أحيانا أقرأ كتابًا من أوله لآخره ولا أفهم أكثرَ مضمونه، والأغرب من ذلك أن بعضَ هذه الكتب، وهي قليلة جدًا، جربتُ العودةَ إلى مطالعته في مراحل لاحقة من حياتي، فلم أتفاعل معها، فتنبهتُ إلى أن عدمَ التفاعل ينشأ من لغتِها الملتبسة، ومضامينِها المضطربة، وتشوشِ رؤية ومرامي كتابها.

بالتدريج أضحتْ تتراكم لدي مبالغُ بسيطة تمكنني من شراء بعض المطبوعات. العدد الأول الذي اشتريتُه من مجلة «العربي» كتب افتتاحيتَه د. أحمد زكي في رثاء الزعيم جمال عبد الناصر، مازلتُ أحفظ بعضَ عباراته، والفقرات المرسومة بخط مميز، أتذكر منها مثلًا: «وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر». أصبحتُ أحدَ المثابرين على متابعة العربي، أقرأ كلمةَ التحرير، والاستطلاعات، ومقالات كتّاب أترقب نصوصَهم، وأشهد بالفضل لهؤلاء الكتّاب عليّ وعلى جيلي من الشباب. مؤسِّس مجلة العربي يستحقّ التبجيل، وهكذا رؤساء التحرير الذين خلفوه، لحماية هذه المطبوعة من السقوط بفخّ التشدّد والانغلاق، في زمن تضامن أيديولوجيا الإخوان المصريين والسلفيين في الخليج والسعودية. ذلك الزمن الذي تسلطوا فيه على وزارات التربية والتعليم، وأسّسوا البنيةَ التربوية التحتية العميقة لها، عبر توجيه المقررات والمناهج في مدارس وجامعات معظم هذه الدول في سياق رؤيتهم المغلقة ومقولاتهم المتشدّدة، فسقطت المدارسُ بعد منتصف

القرن الماضي في قبضتهم، وكان أغلبُ المعلمين والمدرسين دعاةً لمقولاتهم.

في الوقت الذي يدين قراءُ مجلة العربي بالفضل لمؤسّسها، إلا أنه أغلقها لحظةَ انطلاقها واحتكرها لأقلامٍ اختارها بشروطه. لا أشكّك بمواهب وبراعة تلك الأقلام، إلا أن المحرّرَ أرسى تقليدًا في النشر مازالت هذه المطبوعةُ مكبلةً به منذ تأسيسها قبل 65 سنة. مللتُ من الأبواب الثابتة المحتكرة لأقلام تتناوب على الكتابة بإيقاعٍ منتظم في أعداد العربي الشهرية المتوالية لعشرات السنين، قلّما يحضر كاتبٌ غيرهم، مهما كانت موهبتُه وإبداعُه الأدبي ومقامُه الفكري،كأن لا كاتب ولا أديب ولا مفكراً عربياً سواهم. وهذا تقليدٌ استبدَّ بصحف ومجلات بلدان أخرى في الخليج خاصة ذلك الزمان. مجلة العربي مازالت حتى اليوم أسيرةَ هذا التقليد الرتيب الذي بدأ بولادتها، فمازالت مغلقةً بنحوٍ يمل معه القارئُ من الحضور المزمِن لكتابٍ تضجره نغمةُ أصواتهم الأبدية المتشابهة.

- 2 -

الوقوع في أسر الكتب

وقعت أسيرًا للكتب في حياتي. أشعر بوحشة مريرة في بيت يخلو من الكتب، أحتاج الوجود المادي للكتب أكثر من احتياجي لمختلف الأشياء الكمالية في البيت، وحتى بعض الأشياء الضرورية. حيثما أكون تصاحبني الكتب، في سفري بوسائل النقل، واقامتي بالفنادق وأي محل أقيم فيه خارج البيت. لا أتردد على المقاهي وليست لدي هوايات خارج الكتب. أقرأ الصحافة منذ الصف الرابع اعدادي «العاشر»، ومازلتُ حتى اليوم تأكل قراءةُ الصحف والأخبار عبر الأنترنت ما لا يقل عن ساعتين من يومي، الصفحاتُ الوحيدة المنسية في قراءتي الصحف والمجلات الأسبوعية هي صفحات الرياضة.

الشغف بالكتب قديم يعود لمرحلة مبكرة من حياتي، والادمان على حضورها الدائم ترسخ بمرور الأيام. أعيش مع الكتب وكأنها كائنات حيّة تتكلم بلغة أتحسسها وأسكن إليها، وإن كنت لا أجيدها. أشعر أنها تتكلم وهي صامتة على رفوف المكتبة، أحس كأنها ترقبني برفق وهي مبعثرة في غرف البيت، وتفيض بالهدوء حين تلبث بجواري على الدوام حتى في غرفة النوم. بعض الكتب

تمكث مهملة سنوات لا أقرأها، وجود الكتاب يشعرني بالأمن النفسي، ويؤنسني حين أشعر بوحشة الوجود. الكتاب الذي أقتنيه أو يهدى لي، أقرأ مقدمته ومحتوياته، وأتعرف عليه بالتدريج كما أتعرف على الأصدقاء. إن كان لا فائدة فيه، لا يضيف لمعرفتي شيئًا، ولا يغذّي لغتي، ولا يؤنسني، أشعر بأنه عبء على المكتبة، كما لو أني أحمله على أكتافي، فأطرده حتى لو اشتريته بثمن كبير. الحافز الذي يغويني بشراء الكتاب هو الحاجة النفسية الشديدة له، والشعور بأنه أحد مهدئات الاكتئاب. أتساءل لماذا الاستمرار باقتناء الكتب وتكديسها بهذه الطريقة الغرائبية، أليس هذا السلوك يثير أكثر من استفهام، إن كنت غير محتاج لها آنيًا، أو متأكداً من عدم توفر فرصة قريبة لمطالعتها؟ لم أجد جوابًا منطقيًا، سوى إدراك حاجتي لها، الذي لا أعرف بواعثه بوضوح، أتحسس الاحتياج العاطفي لها أكثر من العقلي. مضافًا إلى وهم يتملكني، وربما يتملك غيري من عشّاق الكتاب، بأن امتلاك الكتاب يعني الامتلاء بالضوء الذي ينبع منه، وينكشف فيه شيء مما هو محتجب في الذات والآخر والعالَم من حولنا.

بداية مطالعاتي كنت أبحث عن أي كتاب أقرأ عنه أو أسمع به أو أراه، أسعى مباشرة لشرائه عندما أمتلك ثمنه، إلا أني غادرت هذا النوع من الولع الفوضوي بالكتاب منذ نصف قرن تقريبًا. تواصل الولع بشكل مختلف ولم ينطفئ، أصبحت أنتقي عناوين أحسبها نوعية، وطالما خذلتني توقعاتي بمضامين الكتب وقيمتها الفكرية والابداعية. ما يخدعني من العناوين يؤذيني، أحاول أن أتريث

وأدقق لأرى فربما يكون حكمي متسرعًا على كتاب واحد، وأحاول تكرار التجربة مع كتاب ثان وثالث للكاتب ذاته، عندما أتأكد من وهن قلمه أهمله للأبد. لا أظن أني تحررت أو أتحرر تمامًا من الولع بالكتب، مازلتُ عندما أكون في مجلس وأرى كتابًا بيد أحد الجالسين أو على منضدة، يقودني الفضول للتعرف عليه بطريقة لا أرتضيها أحيانًا. الشعور بالحرج من إنسان التقيْته أول مرة، يدعوني للتردد بطلب الإذن من صاحبه، والمغامرة بسؤاله عن الكتاب وإمكان الاطلاع على عنوانه ومحتوياته. حاولت التخلص من هذه العادة، إلا أني فشلت، مثلما فشلت بالتخلص من ادمان مصاحبة الكتب حيثما أكون.

حين أظفر بكتاب أبحث عنه مدة طويلة أعيش حالةَ ابتهاج تتواصل أيامًا، وحين أتردد بشراء كتاب لم أعثر عليه لاحقًا، ربما ألبث سنوات أشعر بالضجر كلما تذكرت لحظة الاعراض عن شرائه، أو لم تسعفني قدرتي المالية لتأمين ثمنه ذلك الوقت. أتذكر أول زياراتي لشارع المتنبي سنة 1973 عندما كنت طالبًا ببغداد، لم تكن المكتبات في الشارع بهذه الكثافة وهذا الحضور الواسع المتنوع اليوم. دخلت المكتبة العصرية للحاج صادق القاموسي، الذي لم يكن يعرفني ولا أعرف عنه شيئًا وقتئذ، رأيته والشيخ أحمد الوائلي جالسين يتحدثان، بعد السلام عليهما، سألت القاموسي عن كتاب رأيته بتجليد أنيق في عدة مجلدات بحجم الموسوعات على أعلى رف في المكتبة، فأجاب: هذه «دائرة المعارف: قاموس عام لكل فن ومطلب» لبطرس البستاني، وذكر رقمًا كبيرًا ثمنًا لها، وأضاف:

أنت لا تحتاجها بهذا العمر. لم يكن في جيبي سوى بضعة دنانير، ما تبقى من سلفة شهرية تمنح لطلاب الجامعات والمعاهد تلك الأيام. لم تمت هذه القصة في ذاكرتي، ظلت ترافقني حتى اليوم، كلما تذكرت ذلك الموقف الذي مضى عليه نصف قرن تمنيت لو اشتريتها ساعتها، وأحيانًا أتحسر للعجز عن اقتناء دائرة معارف البستاني. لو كنت قادرًا على ثمنها واشتريتها ربما كانت احدى محطات الاستراحة في حياتي، ولعلها تجدد بهجتي بمشاهدتي لها راقدة على رفوف المكتبة، وإن كنت لا أقرأها، ولا أعود إليها إلا نادرًا.

كنت أتردد على مكتبة الصديق عصام الطيار «أبو جعفر» وغيره في سوق الكتب بمدينة قم في ايران أكثر من مرة في الأسبوع قبل أكثر من ربع قرن. عصام مثقف أخلاقي مهذب، قارئ متمرس، خبير بعناوين الكتب ومحتوياتها، أعود إليه للتعرف على مضمون الكتاب وقيمته العلمية، رأيت في مكتبته للبيع «دائرة المعارف الإسلامية» في طبعتها العربية الثانية المنقحة في تسعينيات القرن الماضي، بترجمة: أحمد الشنتناوي، وإبراهيم زكي خورشيد، وعبد الحميد يونس، سألته عنها، فأجابني: هذه الطبعة في 13 مجلدًا، توقفتْ عند حرف الشين، وهي أجود من الطبعة الأولى بكثير بما تشتمل عليه من تنقيحات وتعليقات مهمة. ذلك اليوم ترددت بشرائها عندما رأيتها مطبوعة بورق غير جيد على الرغم من امتلاكي لثمنها. ندمت بعد أيام، لما عدت للأخ أبي جعفر وأخبرني أنه باعها، تألمت لما فرطت فيه. الغريب تنامي هذا الندم بمرور الأيام،كنت كمن يفتقد كنزًا عافه

وهو بثمن زهيد.كلما تذكرت ذلك تأسفت، أعرف أنه لا يتسع وقتي لمطالعتها، ولا أحتاجها كثيرًا. هذه مواقف ربما تبدو غريبة لأكثر القراء، غير أني عشتها، وأظن أن تشبع الإنسان بمناخات الكتب يجعله يتحسسها بوصفها ملاذًا يأوي إليه أوقات الضنك، أو كأنها مرآة يرى فيها الصورة المحببة لوجوده.

ورطني شغف الكتب بموقف محرج، كاد يودي بحياتي. بداية شهر ابريل/ نيسان 1980، بعد وصولي للكويت هاربًا من بطش صدام حسين بعشرة أيام، اكتريت سيارة أجرة من بيت أخي الحاج أبو عادل آنذاك الذي أقمت فيه، إلى شارع فهد السالم المعروف بشارع الجهراء في الكويت. ذهبت إلى مكتبة «وكالة المطبوعات»، وهي مكتبة تعرفت عليها قبل سنوات في زيارة سابقة للكويت، من أهم اصداراتها سلسلة الأعمال الثمينة لأستاذ الفلسفة الشهير د. عبد الرحمن بدوي، عندما كان أستاذًا في جامعة الكويت. دخلت المكتبة التي تتألف من طابق أرضي لبيع اللوازم المدرسية والقرطاسية، ومخزن واسع للكتب تحت الأرض، يتسع لعدد كبير من المطبوعات اللبنانية والمصرية ومختلف البلاد العربية.كانت مكتبة غنية متنوعة، يتراكم على رفوفها كثيرٌ من الكتب الثمينة، مما كنت أسمع بها ولم أطلع عليها من قبل، بعد تزايد عدد عناوين الكتب الممنوعة من دخول العراق. وصلت المكتبة الساعة العاشرة صباحًا، وانغمرت في كنوز رفوفها، أمسك كتابًا يستدرجني عنوانه فأبحث عن مضمونه، أقرأ المحتويات، وأقلب صفحاته، أقرأ نص الغلاف الأخير، وأحيانًا أقرأ مقدمة المؤلف. شغلتني كتب مهمة،

وفرحت بعناوين أمضيت عدة سنوات في البحث عنها. لم أتنبه إلا بعد مضي نحو خمس ساعات من الأُنس بمعاشرة الكتب، خرجت من المخزن لأغادر المكتبة فوجدتها مقفلة. لم يكن صاحب المكتبة عبد الله حرمي يعلم بوجودي، أغلق الباب الذي كان من الزجاج، وخرج ليستريح الظهر في بيته، من دون أن يطفئ الانارة أو المراوح في المكتبة. قلقت لشعوري بتوريط نفسي بموقف شديد الحرج، ظننت أن صاحب المكتبة سيرتاب بعد عودته، لحظة يراني وكأني استغفلته بالبقاء بمكتبته، وربما يشاهدني شرطي من وراء الزجاج فيظن أني سارق، وسرعان ما يقودني إلى السجن. المشكلة كانت بدخولي للكويت من دون جواز سفر، وليست لدي أية وثيقة تثبت اقامتي القانونية في البلد، المصير الحتمي لحالات كهذه هو الترحيل للعراق، وسأكون صيدًا ثمينًا لجلادي نظام صدم، لو حدث ذلك قد ينتهي مصيري إلى أن أقضي تحت سياط هؤلاء. لبثت أترقب عودة صاحب المكتبة بوجل، لحظة دخوله المكتبة الساعة الرابعة والنصف عصرًا، لم أتحسسه إذ كنت أواصل السياحة بين الكتب في السرداب، صعدت ففوجئت بوجوده، كان الطابق الأول لوكالة المطبوعات مزدحمًا بأشخاص يبتاعون قرطاسية. خرجت من المكتبة بهدوء، من دون أن يتنبه هو لخروجي، بعد خطوات شعرت بحرج أخلاقي لمكوثي بمكتبته، وتقليب الكتب والاطلاع عليها عند غيابه دون إذنه. قررت العودة مهما كانت العواقب، عدت مسرعًا وقلت له: أعتذر منك، مكثتُ في المكتبة عندما أغلقتَ حضرتك الباب الخارجي، لم أكن أعلم بمغادرتك

لاستراحة الظهر، ولم تعلم بوجودي لحظة اغلاقك المكتبة. ظهر على وجه عبد الله حرمي الذهول والخجل، أجابني بلطف معربًا عن أسفه لما حدث. لن أنسى موقف هذا الرجل المهذب بعد مضي كل هذه السنوات،كان بإمكان صاحب وكالة المطبوعات اتهامي وتسليمي للشرطة، ووفقًا للقانون سأُرحّل للعراق، وأغلب الظن يكون مصيري الإعدام. أنقذني هذا الرجل النبيل من مغامرة لم أكن مضطرًا أن أزج نفسي فيها، بلا حساب للوضع الطارئ الذي كنت فيه،كان يمكن أن تودي تلك المغامرة إلى الهلاك.

- 3 -

القراءة العشوائية

أعرف أشخاصاً يقرأون كلَّ شيء يقع بأيديهم منذ عشرات السنين، لكنهم مصابون بسوء هضم. مطالعاتهم لا تعمل إلا على تكديس المزيد من المعلومات العشوائية، بلا أن تلهمهم أسئلةً جديدة، أو تضيء عقولَهم رؤيةٌ أعمق وأدق للعالم، أو تضعهم تلك المطالعاتُ في الأفق الراهن لزمانهم. ليس المهم كمية ما يقرأ الإنسان، المهم نوعية ما يقرأ، وكيفية تلقيه لما يقرأه، وقدرة عقله على تمثله وتوظيفه، وتجلي أثرِه في نمط تفكيره وشخصيته وسلوكه. بعضُ القراء ليس له من قراءته إلا المزيد من التيه والتخبط وتشوه الوعي. إنه كمن يأكل الكثيرَ من الطعام بشراهة، إلا أنه مصابٌ بسوء هضم، فمعدته تعجز عن هضم معظم ما يأكله، ما تهضمه من طعام يعجز جسدُه عن استثماره في عملية التمثيل الغذائي وبناء الجسد. أعرف رجلًا في العقد التاسع من عمره، بدأ يقرأ منذ بداية حياته، يقرأ حيثما يكون، يقرأ كلَّ كتاب يقع بيده مهما كان، إلا أن وعيَه لم يتطور أبدًا، لبث قابعًا في بيئته الأولى، لم تمنحه القراءةُ القدرةَ على اكتشاف آفاق رحبة في الحياة، ولم تلهمه أيةَ أسئلة. لا يمكن أن يصدق على أمثال هذا الإنسان عنوانُ قارئ حقيقي، على الرغم من غزارة قراءاته وتنوعها. قراءاته كانت ومازالت حتى اليوم تتخبط بشكلٍ

عشوائي بين عشرات الكتب الرثة، وهذا الصنف من الكتب رائج في أسواق الكتاب. القراءةُ العشوائية عاجزةٌ عن التمييز والفرز والتمحيص، تفتقر للقدرة على الإنصات لأيّ صوتٍ ينبعث من الكتب،كأن كلَّ الكتب في هذه القراءة لغتُها ومضمونُها وأفكارُها متشابهة. الكتبُ الجيدة يتطلب اكتشافُها خبرةَ قارئٍ ذكي، ويتطلب التعلّمُ منها عقلًا شجاعًا، والتفاعلُ معها استعدادًا نفسيًا. أعرف مدرسًا للتراث، يقرأ الفلسفةَ والأدب والفن والسينما والمسرح والرياضة والعلوم، يشتري الكتبَ مهما كان ثمنُها، يمتلك مكتبةً تزدحم فيها أصنافٌ لا تأتلف من الكتب والدوريات، يمضي كلَّ أوقات فراغه في المطالعة، يسهر الليلَ غالبًا أيام العطل إلى الفجر، يلتهم بشغفٍ كلَّ شيء تحت يده من رواياتٍ عالمية، وأعمال فلاسفة ومفكرين كبار، ذهنُه مخزنٌ واسع مكتظّ بمعلومات مكدّسة،كأنها مطموراتٌ تحت ركامٍ معتم، لا تنتظم بسياقٍ منطقي، ولا ينبثق منها ضوءٌ يبدّد عتمتَها. رأيتُه كلّما قرأ أكثر ازداد انغلاقًا وتشدّدًا ومعاندة تجاه أية رؤيةٍ مضادة لما يتبناه. يمتلك قدرةً على إماتةِ بذرة أيِّ سؤال، وإسكاتِ أيّ صوتٍ غير مألوف في قراءاته، وإغلاقِ النوافذ أمام كلِّ ما يمكن أن يزلزل شيئًا من أحكامه النهائية وقناعاته الصارمة. كأن ذهنَه مكونٌ من قوالب خرسانية غير قابلة للاختراق أبدًا، مهما كان إبداعُ ما يقرأه من روايات مشاهير، وعقلانية وعمق نصوص فلاسفة أمثال كانط، وحفريات أعمال مفكرين في الشرق والغرب. أظنّ البنيةَ اللاواعية لتفكيره، وآفاق انتظاراته وتمنياته وأحلامه ورغباته، ورسوخ الهوية المغلقة وتجذرها في أعماقه، تجعل ذهنَه يتحصن بأسوار منيعة، ذهنُه قادر على إجهاض أية محاولة لإيقاظه، وإطفاء شعلة أي تساؤل

غريب يمكن أن يخترقه. أراه يشعر بأمان وهو يتشبث بهذه اليقينيات، يظل يحرسها بطريقة لا تسمح لأية فكرة مهما كانت عقلانيةً أن تتسلل إلى حصونها.

بعد مدة من السياحة في عالم الكتب يصبح القارئ أكثر دراية في انتقاء ما يقرأه بنباهة ويقظة. العناوين الجذابة كثيرة، غير أن مضمونَ معظمها رديء.كلُّ يوم تضيف دورُ النشر أكداسًا من الكتب في مختلف الآداب والفنون وحقول المعرفة، لا يكفي العمر مهما امتدّ حتى لمطالعة ما هو جيد منها، فكيف يضيّع الإنسانُ العمرَ بكتب بائسة.كما يعمل الإنسانُ على انتقاء أحسن الأشياء من كلِّ شيء، عليه أن ينتقي الكتابَ الذي هو منبعٌ أساسي في بناء وعيه بمهارة.

إن كانت القراءةُ العشوائية بدايةً لقراءة تنشد الاكتشافَ واتساعَ آفاق ثقافة الإنسان فهي ضرورية، غير أن من الضروري عبورَها عاجلًا، قبل ضياع سنوات يتخبط فيها الإنسانُ بين الكتب، ربما تقوده إلى متاهات مظلمة يغرق فيها ويعجز عن انقاذ نفسه منها إلى اليوم الأخير من حياته. أتحدثُ عن العشوائية بوصفها حالةً ملازمة للقراءة، تأكل عمرَ القارئ، وتستنزف وقتَه، ولا يجني منها ثمارًا تنعكس على وعيه وثقافته، ولا تترك أثرًا ملموسًا في حياته. إن كانت القراءةُ لغرض التسلية فهي ضروريةٌ أحيانًا مهما كان نوعُ الكتب المقروءة، ضروريةٌ للترويحِ عن النفس، وكسرِ الرتابة الصارمة، وربما للخلاصِ من الملل والسأم والضجر.

ما يخدع القراء من الكتب ويزيّف وعيَهم ليس قليلًا، مثل هذه الكتب ينبغي الفرار من شراكها. لا يعكس تعدّدُ عناوين الكتب واختلافُها تنوع مضمونها. يكون التعدد أحياناً تكراراً مملّاً لكلمات خاوية، لا تجيد

رسمَ صورة ما تنشده بلغةٍ صافية؛ فقلّما نقرأ مَن يمتلك موهبةَ إعادة بناء الكلمات ورصفها بتشكيلةٍ معمارية فاتنة. تسود مجتمعنَا حالةُ شغفٍ بالكلام، وطالما تحول الكلامُ إلى ركام كتبٍ مبتذلة لا تقول شيئًا مفيدًا، يضيع فيها عمرُ القراء ويزيف وعيُهم. أعرف رجالَ دين لا يعرفون الكتابة، يتحدثون كثيرًا بثقة عن كلِّ شيء يعرفونه ولا يعرفونه، وحين تتراكم تحتَ أيديهم أموالًا لم يبذلوا جهدًا في اكتسابها، يجندون طلابَ العلم المحتاجين إلى قوتِ يومهم، لينتجوا لهم كتبًا من ركام كلماتهم، فيباغتون القراء بعد سنوات قليلة بنشر عشرات المجلدات بأسمائهم.

القارئ المتمرّس مولعٌ بالاكتشاف، يحاول عبر مطالعة الكتب ممارسةَ هواية ممتعة، يسعى أن يعثر على الكتاب بنفسه، دون أن يدلّه عليه أحد. لا أبحث كثيرًا عن أفكار جديدة في مطالعاتي، أهتمّ بلغة الكتابة غالبًا، فلا أواصل قراءةَ الكتاب لو لم أتذوق كلماته. أحاول رصدَ أسئلةٍ جديدة لم تولد بذهني، شغفي مرتهن إلى الكتاب الذي يحرّض أسئلتي على توليد أسئلة أكبر منها. لا تثير مخاوفي الأسئلةُ الحائرة، مثل هذه الأسئلة تضع الذهنَ في مواجهة مباشرة مع قناعاته، وتقوده لإعادة النظر في وثوقياته وتمحيصها كلّ مرة. أكثر من مرة طالعتُ كتبًا يمتدحها قراء غير أني عجزتُ عن إكمال مطالعتها، بعضُها أتركه بعد مطالعة المقدّمة، وبعضُها أقرأ بضعَ صفحات منه، فأتركه الى الأبد، ذلك ما دعاني لأن أمارس طريقتي الممتعة في اكتشاف الكتب التافهة والثرية بنفسي. القراءةُ ضربٌ من الدهشة، القارئ الحاذق مكتشِف ماهر، والقراءةُ متعةُ اكتشاف. عندما يقاد القارئ كأعمى يخسر بهجةَ الدهشة، ويخسر متعةَ الاكتشاف، إن قرأ الكتبَ الجادة. ليس بالضرورة

أن تكون كلُّ الكتب الجيدة المناسبة لك مناسبة لي، مسارُ حياتي يختلف عن مسار حياة غيري، وجيلي يختلف عن الأجيال الأخرى، احتياجاتهم العقلية والعاطفية لا تتطابق بالضرورة مع احتياجاتي كلها في محطات زمنية متوالية من صيرورة حياتي. كلٌّ منا يقرأ على شاكلته.

لكلّ مرحلة من مراحل العمر عند أكثر القراء المتمرسين كتبُها وكتّابُها. بعضُ الكتب يدهش القارئَ لأول مرة، وحين يكرّر مطالعتَها في مراحل لاحقة بعد سنوات يفتقد دهشتَه الأولى. الوعي يتطور، التجارب تعلّم الإنسان، الجروح توقظ الإنسان، العالم يتغيّر، والإنسان يتغيّر. ربما يصبح القارئ المتمرس مصابًا بالملل وسريعَ الضجر من تشابه الكتب الجديدة الرتيب في اللغة والمضمون مع ما قرأه من قبل، وربما يكتشفُ في رحلة القراءة فجأة كتبًا ثمينة كان غافلًا عنها؛ تفضح انتحالَ كتب قرأها وكان يعتز بها، فلا تعود الكتبُ الصديقة أمس صديقتَه اليوم. بعضُ الكتب يظلّ يحتاجها الإنسان ولا يستغني عنها في مختلف محطات حياته، مثل الكتب المقدسة، وأعمال الفلاسفة الكبار، والمؤلفات الخالدة في الأدب. ليست هناك وصفةٌ جاهزة كالوصفات الطبية تنطبق على كلِّ إنسان في القراءة أو الكتابة أو غيرهما. القراءة تختلف باختلافِ الناس وشخصياتهم ونوع احتياجاتهم المتنوعة، وطبيعةِ الظروف التي يعيشونها.

أفرح بهدية الكتب الثمينة مثلما يفرح الأطفالُ الفقراء بالهدايا النادرة. قليلٌ من الكتب لا تحذفها ذاكرةُ المكتبة، ولا يمحو بصمتَها النسيان. عندما أقرأ مثلَ هذه الكتب أحيانًا أحزن في فقرة، وأفرح في فقرة أخرى، أبتهج في فقرة، وأكتئب في فقرة أخرى. المبدع يبتكر

موضوعاتِه الفريدة، وطريقتَه الخاصة في التأليف، ولغتَه الصافية بالكتابة. نادرًا ما أعثرُ على كتابٍ يعلِّمني صنعةَ الكتابة، كتاب يختصر مكتبة،كلّما كرّرتُ مطالعتَه أكثر تعلّمتُ أكثر. وأندر منه أن أكتشفَ كتابًا يبهجني بقدر ما يدهشني، لا أكتفي بقراءته مرةً واحدة، لا أعرف، ربما لفرط دهشتي لا أستطيع تصنيفَه أو توصيفَه، وكلّما أردتُ أن أعرّفه يعاند تعريفي، أستمع فيه إلى: ألحان عازف، أغاني شاعر، مكاشفات عارف، وتأملات فيلسوف، أراه كلوحةٍ فنية تتناغم ألوانُها، وتتحدّث رموزُها لغةً لا يفكّ أسرارَها إلا مَنْ يتذوقها.

- 4 -

تبذير العمر بقراءة كتابات تُفقِر العقل

بعض الكتّاب ضائع لا يدري ما يريد، فيضيِّع القارئَ غير المتمرّس معه. كنتُ أجرّب التعرّف على الكتب بداية مطالعاتي، أقرأ أحيانًا كتابًا من الغلاف إلى الغلاف بصبرٍ مرهق على الرغم من نفوري منه، وعدم قدرتي على فهم ما يريده الكاتب، وكأن امتحانًا مفروضاً عليّ بهذا الكتاب. وقعتُ ضحيةَ ذلك قبل أن تتراكم تجاربي، وأكتشف أن المطالعة تعني ضرورةَ تذوّق القارئ للنصّ، التذوق حالة للذات لا تنوب عنها أيةُ ذات أخرى. اكتشفتُ أن ما يُفقِر العقلَ ويشيع الجهلَ من الكتب أكثر بكثيرٍ مما يوقظ العقلَ ويبعث الوعي. ربما تقرأ كتابًا واحدًا يوقظ عقلَك ويجعله يفكّر بعمق، وربما تقرأ مكتبةً كاملة من الكتب الرديئة، لا تفقر عقلَك فقط بل تخدره وتغرقه في حالة سبات، وتجعلك عاجزًا عن التفكير العقلاني بأيّ شيء، إن استسلمتَ لما ورد فيها من أكاذيب وأوهام وخرافات. يتناسب انتشارُ هذه الكتب تناسبًا طرديًا مع تفشي الجهلُ وانحطاطِ الوعي، الجهلُ بيئةٌ خصبة لتفشي هذا النوع من الكتابات. الكتبُ الرديئة تطردُ الكتبَ الجيدة، مثلما يقال: «النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من السوق»[1].

(1) منسوب هذا القانون إلى توماس جريشام «1519 ـ 1579م»، ويسمى بقانون «جريشام». وهو يشير إلى كيفية طرد النقود المزوّرة للنقود الصحيحة من السوق.

كشفتْ لي تجربةٌ في المطالعة بدأتْ منذ مرحلة الخامس الابتدائي أن أكثرَ الكتب المعروضة للبيع يضيع فيها العمر ويُهدَر فيها المال، مضافًا إلى أن بعضَها يتشوش معه التفكير، وأحيانا يتعطل العقل، وتفسد الذائقةُ اللغوية. بين حين وآخر ألجأ إلى استبعاد كتب أخطأتُ في شرائها.

ما يبلِّد العقلَ ويشيع الجهلَ هو الأكثر مبيعًا وانتشارًا، على الرغم من أنه لا قيمةَ له. أشعر بالضجر عند قراءة أكثر كتابات ما يسمى بـ: «التنمية البشرية»، أو «تطوير الذات»، أو «علم الطاقة النفسية». وجد الكاتبُ الهندي ف.س.نايبول الحائز على جائزة نوبل 2001، أن أهل الغابون يؤمنون بأن كل شيء على الأرض هو «طاقة» في البشر والحيوان والنبات. قال له أحدُ الزعماء المحليين: «كل واحد منّا عبارة عن بطارية، وفي رؤيتنا للعالم نعتقد أن حتى الحيوانات هي بطارياتٌ أيضاً، وإذا ما مات أحدٌ في العائلة فإن هذا يعني أن عضواً آخر قد سُرقت منه طاقتُه. ونحن نذهب أيضاً إلى ساحة القبيلة إذا أردنا سرقة الطاقة من شخص آخر. مجتمعنا أموميّ، وننتمي إلى عائلة الأم، كما يعد الشقيق الأكبر للأم رأس العائلة مطلق القوة. ولذا إذا ما توفي ابن شقيقة ما، يشتبه بأن الخال قد أخذ طاقته»[1]. تتضمن كتاباتُ علم الطاقة وأشباهُها أوهامًا وأساطيرَ ومفاهيمَ غير علمية، وعباراتٍ متعجّلة، وشعاراتٍ مبسّطة مكرّرة، تتلاعب بمشاعر الناس.

أضحى ركامُ هذه الكتابات مبتذلًا، يأكلُ وقتَ القراءِ غيرِ الخبراء، وتستنزفُ توصياتُها الواهنة تفكيرَهم، ولغتُها الرثة بيانَهم. تفشّت هذه

(1) جريدة الشرق الأوسط، 10 يونيو 2023 م / 21 ذو القِعدة 1444 هـ.

الكتاباتُ الساذجة التي تجهل الطبيعةَ الإنسانيةَ كالوباء بين القراء في السنوات الأخيرة، وأوهمت عددًا منهم بأنها تعالج كلَّ متاعبهم النفسية. أكثرُ هذه الكتابات هزيلٌ، لا يقع في فتنتها إلا الناسُ المغفلون، الذين لا يفكّرون بتأملٍ ورويةٍ وتدقيق، ولا يمكن أبدًا أن تغوي العقولَ الحكيمة اليقظة. هذه الكتابات والتوصيات تجهل التناقضاتِ الذاتية في الإنسان، وتتعاطى معه كأنه كائنٌ آلي. يشبه هذه الكتاباتِ في الجهل بحقيقة الطبيعة الإنسانية أكثرُ التوصياتِ الجاهزة والعبارات المتداوَلة بين الناس. لا يكترث علمُ النفس وعلومُ الإنسان والمجتمع الحديثة وعلمُ الأعصاب كثيرًا بهذه التوصيات الزائفة لكتابات تشدّد على نصائح وإرشادات، من قبيل: «لا تحزن»، «لا تكتئب»، «لا تقلق»، «لا تتشاءم»، «لا تتألم»، «لا تنزعج»، «لا تغتم»، «لا تتأرق في نومك»، «كن حازمًا وجادًا»، «تأقلم مع الظروف بدلًا من تضييع الوقت بالتفكيرِ الزائد»، «استمتع باللحظة الحالية»، وأمثالِها من وصفات جاهزة لشخصٍ يمارس الطبَّ من دون أن يتعلمه. أكثر هذه التوصيات والوصفات ضدّ التفكير العقلاني العميق، وضدّ علم النفس وعلوم الإنسان والمجتمع الحديثة وعلم الأعصاب. هذه كتابات تجهل الطبيعةَ الإنسانية المركبة المعقدة العميقة، ولا تدرك تناقضاتِها، والعقدَ التربوية والأمراض النفسية المتنوعة والمختلفة المتفشية بين الناس، وتجهل ضرورةَ مراجعة المصابين بالأمراض النفسية والعصبية للعيادات والمصحات النفسية والعصبية لمعالجة هذه الأمراض، من دون مراجعة العيادات المختصة لا يشفى أو يسكن هؤلاء المرضى، ولا تتخلّص عوائلهم والناسُ من حولهم من الآثار الموجِعة لإصابات بعضهم الحادة المؤذية للغير.

كثيرٌ من متاعب الحياة تنشأ من خذلان الإرادة. المعرفةُ وحدها لا تكفي، طالما عرف الإنسانُ الضررَ والآثارَ الموجعة لأفعاله، غير أنه يفشل كلَّ مرة في الكفّ والامتناع عن تكرار هذه الأفعال. بناءُ الإرادة وتكريسها غير تحصيل المعرفة وتراكمها، لكلٍّ من المعرفة والإرادة منابع تكوينها وتنميتها وتكاملها. الأديانُ لها عباداتها وطقوسها ورياضاتها الروحية لبناء الإرادة وتجذيرها، وعلومُ النفس والاجتماع وعلمُ الأعصاب لها تفسيراتها وأساليبها ووسائلها. تتفهم العلومُ بعضَ رياضات الأديان وتحاول تفسيرها في كثيرٍ من هذه الحالات، وتفترق العلومُ في تفسيراتها ووسائلها بإيقاظ الإرادة وترسيخها، وتتعارض في حالات متنوعة مع تلك الرياضات.

يزعم أكثرُ كتابات ما يسمى بـ: «التنمية البشرية»، وأشباهها أنه يعالج الأزماتِ الروحية للإنسانِ الغارقِ اليوم بالاستهلاك المادي حدّ التخمة والابتذال والضجر، وتشحّ في حياته كثافةُ المعنى الروحي وقوتُه الخلاقة، غير أن هذا النوع من الكتب يشيع وعيًا زائفًا بظمأ الروح وغربتها في ظلام المادة، ولا يعرف شيئًا عن روافد الأمن الذي تنشده. هذه الكتاباتُ مزيجٌ لخلطة غريبة مستقاة من دياناتٍ وارتياضات هندية وآسيوية، وشيءٍ من تمارين هجينة، تعبث بالروح وتشوه الوعي. يوهم كتابُها القراءَ البسطاء بأنه يوقد طاقةَ المعنى في حياتهم، مع أنه ليس سوى مسكنات خادعة. المؤسف أن بعضَ الناس عندما يعثر على هذه الكتابات يسكن إليها، لظنِّه بأنها تروي الظمأَ الروحي، وتستجيب لاحتياجاته للمعنى الذي يبحث عنه. لا قيمةَ لكتابة لا تعتمد العقل، العقلُ

لا غير هو ما يحمي الإنسانَ من الانزلاق في متاهات الخرافات والأوهام والجهالات.

الكتابةُ المشبَعة بالمعنى يجب ألا تهدر مرجعية العقل، مثلما ينبغي أن تملأ الروحَ بالسلام الذي يفتش عنه الإنسان. المعنى الروحي يمكّن الإنسانَ من تجاوزِ ضيق المادة، والخلاصِ من الاختناق بفضائها الحسّي المظلم المملّ، ويطلق روحَه المكبّلة بأثقالها للتسامي في فضاء الأنوار الإلهية اللامتناهي. الكتابة المشبَعة بالمعنى الروحي الذي لا يغيب عنه العقل، يفتّش عنها الإنسانُ الذي يهتدي بالعقل ويتخذه أساسًا لأحكامه بالنفي أو الاثبات، ولرسم خارطة طريق حياته. عندما يعثر الإنسانُ على مثل هذه الكتابة يسكن إليها، بوصفها تحميه من الاغتراب الوجودي، وتعتق روحَه من استعباد المادة المضجِر. العقلُ يحمي الإنسانَ من الضياع، وعندما يمارس وظيفتَه الفاعلة يمنع انزلاقَ الروح في متاهات وكوابيس الخرافات والأوهام. أعرف أن إنتاجَ معادلة كهذه، تضبط التوازن العقلي والروحي، صعب جدًا. فهذا التوازن يستعصي على عدد كبير من الناس، وأحيانًا يتعذّر على بعضهم الآخر[1].

ربّ قارئ ليس له من قراءته إلا النصب والتعب، القراءة بتأمل صبور من شأنها أن تنقل القارئَ من يقينياتِ الأجوبة الجاهزة إلى قلقِ الأسئلة الحائرة. قيمة كلّ قراءة تعكسها قدرتُها على أن تكون منتجة، بمعنى أنها تثير الأسئلةَ في ذهن القارئ، ويرحل معها عقلُه إلى ما لم يألفه من فضاء مسكوت عنه في التفكير. ليس المهمّ كمية ما تقرأه، المهم نوع ما تقرأ،

(1) راجع فقرة: «الروح والعقل» في الفصل الثاني من كتابنا: الدين والكرامة الإنسانية، ص 74 ـ 76، ط2، 2022، دار الرافدين ومركز دراسات فلسفة الدين، بغداد.

وكيفية التلقي، وأثر ما تقرأ في بناء عقلك وروحك وقلبك وسلوكك. ليس هناك كتابٌ يختصر كلَّ الكتب، وليس هناك كاتبٌ مستوعب لكلّ العلوم والمعارف والآداب والفنون. لا يكفي عنوانُ أيّ كتاب للحكم على محتواه، أحيانًا يوقِع لمعانُ العنوان القارئَ بإغواء شراء الكتاب والمسارعة بمطالعته، وبعد قراءة المقدّمة يدرك أنه كان ضحيةَ عنوان مخادع.كثيرٌ من الكتب المنشورة تسرق عمرَك، من دون أن تضيف لك شيئًا، لا تضيف لمعرفتك بنفسك وبغيرك شيئًا، ولا تضيء وعيك بالعالم، لا تثري لغتَك ولا تعزّز رصيدَ معجمك البياني، بل ربما يتبلّد عقلُك وتندثر لغتُك الطرية وتتخشّب بسبب إدمانك على مطالعة هذا النوع من الكتب. خلافًا لكتب نوعية منتقاة بخبرتك كقارئٍ متمرّس، هذه الكتب توقظ عقلَك، وتحيي روحَك، وتبهج قلبَك، وتثري لغتَك، وتمنح حياتَك شيئًا من المعنى الذي تفتّش عنه.

العمر قصير، استنزافه بكتب رديئة يثير الأسى والحسرات حين نستيقظ لاحقًا. الكتاب الذي يستلب الوعي يثير الحزن، ويطفئ بداخل القارئ شغف القراءة ومتعتها.كتاباتٌ قليلةٌ، وربما نادرة، توقظ العقلَ، وتُحدِث وعيًا علميًا بالطبيعة الإنسانية، ورؤيةً عميقة للعالَم.كثير مما يطبع لا يستحق القراءة، هذه تجربتي الخاصة في قراءة الكتب، كنت أحيانا كمن يبحث في أكداس متراكمة من الفحم عن لؤلؤة.

لا يمكن تذوقُ كثير مما يُنشَر، أقرأ نصوصًا متخشّبة فأشعر كأني أُكسِّر حجارةً قاسية بأسناني، وأقرأ نصوصًا طرية مضيئة تنبض بالحياة لكتّاب آخرين فأتلذذ بكلماتهم العذبة.كم أشعر بالغثيان عندما أقرأ أحيانًا كتابات، تعجز عن أن تبهجني أو توقظ عقلي أو تضيف شيئًا

مفيدًا لثقافتي وتثري لغتي، بل وأخشى من أن تشوّه ذائقتي اللغوية، وتُفقِر ثقافتي، وتشعرني باليأس من يقظة العقل، وأحيانًا تعكر مزاجي. لا أتفاعل مع أسماء معروفة أحيانًا، لحظة أجد لغتَهم غيرَ جذّابة، كلماتِهم لا تنبض بالمعنى، طريقةَ تفكيرهم ضبابية. أتذوق النصوصَ العذبة كما أتذوق الطعامَ الشهي بغضّ النظر عن كاتبها، أحيانًا يكون النصُّ لذيذًا فألتهمه كما ألتهم الطعامَ وأنا جائع، وأحيانًا يكون بلا طعم فأتجرع غصصه، وأحيانًا يكون مرًا لا أستسيغه، وأحيانًا يكون متعفنًا لا أطيقه. بعضُ الكتّاب كأنهم يكتبون لأنفسهم،كتابتُهم مشغولة بتكديس كلمات مملة، نثرهم مصنوع، لا نسيجَ طريّاً ينتظم فيه، ولا تتدفق كلماتُه بسلاسة.كقارئ أتلذّذ بكلِّ كتابة ثمينة أتعلّم منها، أو تثير في ذهني أسئلةً جديدة، أو تدعوني لإعادة النظر بواحدةٍ من قناعاتي، وتقوّض شيئًا من وثوقياتي، وأتذوق نكهة كلماتها كما أتذوق الأشياء العذبة.

لم أهتم بداية حياتي بالفلسفة الحديثة، ولا أكثرِ أشكال الأدب والفن، وكنت أحسب الأعمال الخالدة لشكسبير ودوستويفسكي وتولستوي وماركيز ونجيب محفوظ وأمثالها مجرد ترهات. لكن بعد أن طالعت بعضَ هذه الأعمال وأمثالها من النصوص الثمينة، أدركت خطأ عدم اهتمامي فيها من قبل، وتضييع سنوات ثمينة من عمري بكتب بعضها لا قيمةَ له. أضاءت لي أعمال الفلاسفة العميقة، وكتبُ علوم النفس والمجتمع، ونصوصُ الأدباء الكبار والرواياتُ الخالدة، شيئًا من أعماق النفس الإنسانية، والاحتياجاتِ المتنوعة لحياة الإنسان الفردية والمجتمعية، والأنماطَ المختلفة لعيشه، وكشفت لي الأقدارَ المفروضة

عليه وكيف تولد بولادته، وكيف يرث هويته الإثنية والدينية والطبقية والجغرافية بلا اختيار.

الكتب الثمينة، وهي قليلة جدًا، بالقدر الذي أسعدتني وأراحتني، ومنحتني شيئًا من المعنى لحياتي، وأبهجتني لحظات الاكتئاب، أتعبت عقلي حين مارست أسئلتها الحارقة تحديًا مستمرًا لقناعاتي، بل زعزعت ما كنت أحسبه يقينيات راسخة في شبابي، وبداهات لا تحتاج إلى برهان ولا تقبل اعادة النظر فيها، بداهات كنت أرى مجرد تصورها يكفي لتصديقها، فجأة وجدت ذهني يتوغل بعمق في تفكيكها، وينتقل إلى ما هو مسكوت عنه ومنسي ومجهول في فضائه.

أسوأ المتاهات متاهةُ القراءة العشوائية، نسيانُ النصوص الخالدة والغرقُ في الكتابات الهامشية أحدُ متاهات القراءة. لا يقرأ الفلاسفةُ الكتاباتِ الهامشية والشروحاتِ والتعليقات، يكتفون بقراءة المتونَ والنصوص الأساسية. يقرأون الأعمال الاساسية في الفلسفة اليونانية والعصر الوسيط والحديث، ويكتفي أكثرهم بذلك، ولا ينشغلون بغيرها. يستغرقون في التأمل والتفكير العميق، وتوليد الأسئلة الكبرى، واقتحام ما هو منسي ومجهول للذهن.كانط أحد أعظم الفلاسفة في العصر الحديث تحكي لنا سيرته الشخصية أنه كان يمضي معظم يومه خارج الكتاب والمكتبة.

- 5 -

مكتباتنا أرشيف ذكرياتنا

كلُّ كتابٍ في المكتبة يحكي قصةً ويؤرّخُ لمناسبة في حياة القارئِ والكاتب، حين أتناول كتابًا بعد سنوات طويلة من اقتنائه تأتي معه سلةُ ذكرياتٍ وحكايات. أكثرُ المرات أتذكّرُ الشخصَ الذي ابتعتُ منه الكتاب، والمكتبةَ والمعرض والمدينة، وربما تاريخَ الشراء والسعر أيضًا. إن كان الكتابُ هديةً من عزيز وموشى بتوقيعه، تظلّ بصمتُه ضوءًا لا تمحوه الأيام بعد رحيله من الدنيا. يعرف مَن يعيش في فضاء الكتب ما تتحدث إليه لوحاتُ أغلفتِها وألوانها وأشكالها، وما تحكيه خطوطُ عناوينها، وإخراجُ صفحاتها وحروفُ كلماتها، وما تبثّه روائحُها ونكهةُ أوراقها. المولعون بالكتب يشعرون بالهدوء والأنس لحظةَ تحدّثهم وينصتون إليها بعيدًا عن أيّ شيء سواها.

المكتبةُ متحفٌ يكتنزُ أثمنَ ما يمتلكه الكاتبُ بحياته. نشأت أوّلُ مكتبةٍ لديّ بتراكم كرّاساتٍ مستلّة من ألف ليلة وليلة، مطبوعةٍ على ورقِ جرائد رخيص. أخذتُ إذنًا من أهلي باستعمال حقيبةٍ معدنية صغيرة أودع فيها تلك الكراسات، أعود إليها لأستأنف مطالعتَها باستمرار. حدث تزويدٌ لهذه المجموعة عندما انتقلتُ إلى الشطرة، فبدأت تتراكم شهريًا أعدادُ مجلة العربي، مضافًا إلى بعض الكتب والكتيّبات

والمطبوعات الحكومية بأسعار تشجيعية. في الصف الخامس الثانوي امتلأت الحقيبةُ المعدنية الصغيرة، فأهدتني والدتي صندوقًا خشبيًا كبيرًا، أفرغتُ محتوياتِه اليسيرة من ثيابٍ قديمة وأشياءَ بسيطة في صندوق أكبر، رافقها ذلك الصندوقُ منذ أيام زواجهما الاولى هي وأبي. ليس هناك أثاثٌ للزواج غير هذا الصندوق في حياة الآباء، هذا كلُّ أثاثِ زواج سكان «الصرائف»[1] ذلك الزمان. الكتب القديمة المكدّسة في الصندوق تشبّعث بدخان النار الموقدةِ داخل الصريفة المغلقة بلا نوافذ في الشتاء، بنحو تبدّل لونُ أوراقها فصار قاتمًا.

بعد انتقالي للدراسة ببغداد سنة 1973، بدأ تراكمُ الكتب يتنامى ويضيق معه فضاءُ الصندوق بالكتب المضافة. لا دروس لديَّ يوم الخميس، مقرّ إقامتي في السكن الطلابي بمنطقة أبو غريب بضواحي بغداد ذلك الزمان، أذهب بعد الإفطار صباحًا إلى مكتباتِ التحرير في شارع السعدون. أكرّر هذه الجولة أسبوعيًا، لا أترك مكتبةً أراها، في كلّ مكتبةٍ أزورها أمكث طويلًا، أفتّش عن كتابٍ لا أدري ما هو، لا أعرفه ولا أعرف مؤلّفَه! أقرأ عنوانات الكتب وكأني تائه، أكتشف في رحلة التيه الممتعة بعضَ الكتب الثمينة، تعرّفت على مؤلفين لم أسمع عنهم من قبل. بعد هذه السياحة في مكتبات التحرير، أتّجهُ للمركز الثقافي السوفياتي قرب فندق السفير أول شارع أبو نواس ببغداد، يعرض المركزُ مطبوعاتٍ عربية دعائية مجانًا. في تلك السنوات كنت أزورُ معرضَ بغداد الدولي التجاري «ليس معرضًا للكتاب»، أجنحةُ الدول

(1) الصرائف نمط موروث من البيوت، الشائعة في حياة سكان الأهوار في العراق، مبنية بالقصب والحصران «البواري» المصنوعة من القصب.

في المعرض تعرض صناعاتِها ومنتجاتها، الجناح الكوري الشمالي هو الوحيد الذي ينشغل بتوزيعِ أكداسٍ لكتب بحجم كبير بالعربية مجانًا، مطبوعةٍ بأفخر أنواعِ الورق والأغلفة. تحمل الأغلفةُ صورةَ زعيمها كيم إيل سونغ جد حاكم كوريا الشمالية اليوم. بعد قراءة المقدمة والاطلاع على محتويات الكتاب وتقليبِ صفحاته، لا تستهويني لغتُه، ولا أتفاعل ومقولاتِه، أمقت استبدادَه واستعبادَه لشعبه.

في حوزة النجف كنتُ أحضر مزادَ الكتب الذي يقيمه محمد كاظم الكتبي صاحبُ المكتبة الحيدرية صباحَ يوم الجمعة، مزادُ الكتب يستحثّ عشّاقَ الكتاب للحضور، لا أشتري إلا قليلًا جدًا مما يتنافس عليه المشترون، وإن كنتُ أتلهّف لاقتناء كتبٍ تضيق قدرتي المالية عن ثمنها. يجلب طلابُ الحوزة كتبًا يضطرون لبيعها لضروراتٍ معيشية ولو كانوا محتاجين في دراستهم إليها، أو أنها فائضة عن الحاجة. بعضُ الورثة يتخلّصون عاجلًا من مكتبات الآباء فيبادرون لعرضِها في المزاد، أو طردِها بطريقةٍ مهينة من مأواها. نقل لي أحدُ الأصدقاء واقعةً مأساوية لمصير مكتبة قيِّمة لأحد تجار بغداد بداية القرن الماضي، يقول: كان هذا التاجرُ من عشّاق الكتاب، لديه خبرةٌ جيدة بالكتب والمؤلفين، يقتني المطبوعاتِ والمخطوطاتِ النفيسة، وكان ضنينًا بالإعارة، لا يسمحُ أن يخرجَ أيُّ كتاب من بيته. ظلّ يتربص بعضُ أصدقائه يوم وفاته، عسى أن يستعيروا كتبًا بحاجة إليها من ورثته، بعد مضي أيامٍ قليلة على وفاته ذهبوا للأبناء لاستعارة ما هم بحاجةٍ ماسة إليه، فقال الورثة: ليتكم جئتم أبكر، بعد فراغنا من عزاء الوالد كنا بحاجةٍ ماسة لتفريغ غرفِ المكتبة، فوضعنا كلَّ الكتب في أكياسٍ بضائعَ كبيرةٍ وألقيناها في نهر دجلة. آغا

بزرك الطهراني يروي في موسوعتيه: «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، و«طبقات أعلام الشيعة» قصصًا مؤلمة عن مصير بعض المكتبات، لفرط اعتزازِ أصحابِها بالكتابِ يرفضون إعارتَه، تلاشت بعد وفاتهم مكتباتُهم ببيعِها من الورثة بطريقةٍ عشوائية، أو إهمالِها والتفريطِ بمقتنياتِها. أظنُّ هذه كانت نهايةَ مكتباتٍ عديدة لا نعرفها، ولعل هذا ما ينتظر مكتباتٍ أخرى يعتزُّ بها أصحابُها ويدخرون فيها أغلى ذكرياتِهم.

نأمل أن يتنبّه الورثةُ لما كابده الآباءُ في بناء مكتباتِهم، كلُّ كتابٍ يسجّل أحدَ قصصِ حياة الآباء. الوفاءُ خُلُقُ النبلاء، مصيرُ المكتبات يتحكمُ فيه الورثة، أحيانًا يجهل الورثةُ قيمةَ الكتب، وأحيانًا يكون الورثةُ بلا وفاءٍ وبلا ضميرٍ أخلاقي، ولذا فعلى صاحبها وهو حيّ تأمينُ ما تؤول إليه غدًا، وإن كان أملُ الإنسان بالخلود في الحياة الدنيا لا يدعوه للاهتمام بما تؤول إليه مكتبتُه وأشياءُ ثمينة غيرها من ممتلكاته. المكتبةُ أحدُ مكونات الهوية الشخصية، وأرشيفُ ذكرياتِ مَن أنشأها، لا يشعر بقوة حضورِها في وجدانه غيرُ صاحبها. لتشبّعِ الكاتب بمناخاتِ مكتبته، وعيشِه أكثرَ عمرِه داخلها، تحدث صلةٌ حيّة بينه وبينها، لحظة يموت كأن مكتبتَه تكتئب ولا تطيق الحياةَ بدونه، فتعلن التحاقَها به أيضًا، لفرطِ صدمتِها قد يكون موتُها انتحارًا. عالمُ الأبناء غيرُ عالم الآباء اليوم، حياتهم تغيّرت كثيرًا، نمطُ العيش في البيوت الواسعة بدأ ينحسر، فرض تضخمُ المدن واتساعُها أفقيًا وابتلاعُها المزارعَ والبساتين والغطاءَ الأخضر، الانتقالَ للمباني العمودية ووحداتها السكنية الضيقة، أغلبها بالكاد يتسع للأثاث المنزلي، فأين تأوي رفوفُ الكتب الممتدة. أغلب الجيل الجديد يقرأ الكترونيًا، ويفتقر لحنين الآباء للورق، ولدي محمد

حسين الرفاعي أخبرني أنه اعتمد على كثير من المرجع أغلبها الكترونية، عندما كتب أطروحتَه للدكتوراه.

بعد اشتداد الرقابة، وازدياد عدد العنوانات الممنوعة في العراق بشكل واسع، أضحى تزويدُ المكتبات من إصدارات بيروت والقاهرة وغيرهما شحيحًا أواخر سبعينيات القرن الماضي. قلّما تُضاف عنوانات جديدةٌ لمطبوعاتٍ من خارج العراق. أكرّر زيارةَ المكتبات في النجف أكثر من مرة أسبوعيًا، أحيانًا أجد كتابًا جيدًا بثمن زهيد، أنفق نسبةً مما يصلني من راتب محدود في الحوزة على شراء الكتب. اتسعت المكتبةُ بسرعةٍ تفوق ما أتوقّع، إثر تزويدها المتواصل بعنوانات كتبٍ منتقاة، من المقرّراتِ الدراسية في الحوزة وشروحِها لمرحلتي المقدّماتِ والسطوح. نسبةٌ ليست قليلةً من الكتب الفقهية والأصولية كانت بطبعاتٍ حجرية بحجم الموسوعات، تزدحم داخلَها شروحٌ وتعليقاتٌ وحواشي فقهاء وعلماء أصولٍ لامعين،كثيرٌ منها تستوعب مجموعةُ صفحاتها عدةَ كتبٍ متجاورة، مرسومةٍ بأشكالٍ هندسية متناظرة، مدونةٍ بخطوط متنوعة غاية في الروعة. تجاوز عددُ مقتنيات المكتبة مدة إقامتي بالنجف 800 كتاب. بعضُها مجلات صدرت في النجف وبغداد قبل سنوات، مثل: الأضواء، الإيمان، النجف، رسالة الإسلام، وغيرها. أكثر ما تحتويه المكتبةُ قرأتُه بعناية، أنكبُّ ساعاتٍ طويلة على قراءة المطبوعات الحجرية، قراءةُ المجلاتِ والكتب محطةُ استراحة. أقرأ سريعًا، كأني أمام امتحان، لا أفرغ من كتاب إلا وحفظت شيئًا من محتوياته. في يومين فرغت من مطالعة كتاب: «لمحات من تاريخ العالم»، يتضمن رسائلَ جواهر لال نهرو لابنته أنديرا غاندي من سجنه،

عدد الرسائل 196 رسالة، من أكتوبر 1930 إلى أغسطس 1933. رأيته من أمتعِ الكتب وأكثرها نفعًا تلك الأيام.كتابٌ زاخرٌ بالوقائع والمعلومات، والرؤى الذكية لسياسي واقعي متمرس، يهتم بدراسةِ وتحليلِ مواقفِ صنّاعِ التاريخ واستخلاصِ دروسِ حياتهم. نهرو وريث المهاتما غاندي السياسي، غاندي ونهرو مؤسسا الدولة الحديثة في الهند بعد تحررها من الاستعمار البريطاني، أمرَ نهرو بسنّ دستور الهند سنة 1950، الذي كفلَ التداول السلمي للسلطة في بلاد شاسعة تتجاور على أرضها أديانٌ وطوائفُ وقومياتٌ وثقافاتٌ ولغاتٌ متنوعة. منذ لحظة الانطلاق مازال المجتمعُ الهندي يراكم تطورًا علميًا لافتًا، ويساهم بابتكار أحدث البرمجيات وكلِّ ما يتصل بالكمبيوتر وغيره من التكنولوجيات المتقدمة.

أُكرهت على مغادرة بيتي في النجف، وفقدان ما أمتلكه، ولم يكن غير أثاث منزلي الزهيد، لم أكترث بأي شيء نُهِب سوى المكتبة حيث أودعت أغلى ذكرياتي في حوزة النجف.كلُّ شيء في البيت وقع في قبضة شرطة الأمن، لا أتذكّر أيَّ شيءٍ أقسى مرارةً من ضياع كتب عشت معها وعاشت معي، وأنفقت وقتي بدراستِها ومطالعتها.

- 6 -

كلما احترقت مكتبة انطفأ شيءٌ من نور العالم

غامرت بالفرار إلى الكويت في متاهات الصحراء ليلًا، رغم وضعي الأمني الطارئ ببلد دخلته بلا جواز سفر، حرصت على اقتناء الكتاب أكثر من حرصي على أي شيء آخر أول وصولي،كثيرٌ من الممنوعات ذلك الوقت في العراق مسموح ببيعها في المكتبات هنا. متعةُ الظفر بكتاب ممنوع بعد سنواتٍ من البحث عنه لا يعرفها إلا هواةُ الكتب. في زمن غياب المنع ووفرة الكتب الورقية والإلكترونية، يخسر القارئ هذا النوع من الشوق الغريب للممنوع، ولا يبتهجُ بمتعة الظفر بكتاب بعد سنواتٍ مديدة من البحث عنه. بعد أيام من وصولي بدأت تتشكل مكتبة في مقر إقامتي الجديد، تضاعفت أعداد الكتب وتنوعت بمدة قليلة، ولأول مرة تتغلب كتب الفلسفة والعلوم الإنسانية على الكتب الدينية في مقتنيات المكتبة. أرتاد مكتبات البيع باستمرار، أحاول التعرّفَ على جغرافيا توزيعها في مدينة الكويت. في مكتبة دار البحوث العلمية تعرّفت على مجلة المسلم المعاصر، ومحيي الدين عطية شقيق رئيس تحرير المجلة مدير الدار، ومؤسّسِها جمال الدين عطية. نشأت صداقة مع الأخوين، الأول عبر اللقاء عند زيارة دار البحوث العلمية، والثاني عبر المراسلة. من العدد الأول كنت أقرأ أعدادَ المسلم المعاصر

بتمامها غالبًا، كانت أعدادُ السنوات الأولى تناقش موضوعاتٍ تتّصل بواقع حياةِ المسلم اليوم وشؤونه، يتّسع هامشُ الحرية لنقاش أصواتٍ متعارضة على صفحاتها، قبل أن يضيق أفقُ هذه المجلة بعد سنواتٍ من صدورها، ويحتكرها صوتٌ واحدٌ ينطق بكلماتٍ متشابهة وألفاظٍ مكرَّرة. نشرتُ فيها سلسلةَ موضوعات، لم أظفر بأعدادها الجديدة بعد مغادرة الكويت، بعد سنواتٍ نسيت ما نشرته فيها،كان المحرّرُ نبيلًا، إذ تلقّيت شيكًا بقيمة 800 دولار مكافأة لم أتوقّعها، وأنا في ضائقةٍ مادية حرجة نهاية ثمانينيات القرن الماضي.

تضاعف عددُ مقتنياتِ مكتبتي في الكويت بمدة محدودة، تجاوز عدد عناوينها 1000 كتاب، لم أبخل بشراء أيِّ كتابٍ أحتاجه أو أتوقّع احتياجَه غدًا. ساعات اليوم تمضي في العمل، والمهام المتنوعة والعلاقات، لم أستطع تخصيصَ وقتي بتمامه للقراءة، تراجع نصيب الكتاب من ميزانية الوقت، لم يختص إلا بساعاتٍ قليلة ليلًا. باغتتنا حوادثُ طارئة، لا أعرف من يقف وراءها، اضطررت لمغادرة الكويت فجأة.كان مصير هذه المكتبة مشؤومًا، لفرط خوفه مما تتضمّنُه محتوياتُها أرسلها صاحبُ البيت الذي استأجرته عاجلًا إلى المحرقة فاستحالت رمادًا،كلما احترقت مكتبة انطفأ شيءٌ من نور العالم. ليس في كتبي كتابٌ واحدٌ ممنوع، تفهّمت ظروفَ الرجل وما تعرّض له من إكراهٍ يفوق طاقتَه فعذرته. كان لا يقرأ ولا يكتب، ظلت تقلقه نشاطاتي ورفاقي ضد نظام صدام، هو إنسان طيب يمقت العملَ السياسي.

أعاد لي حدثُ احراق مكتبتي المرير شريطَ صور مجازر المكتبات وحرائقها الانتقامية في مختلف العصور. أكاد أتحسس ابادةَ مكتبات

بغداد المريعة، بعد سقوطها بيد هولاكو وجيشه المتوحش سنة 656 هـ/ 1258م، وحرائقَ مكتبات الأندلس بعد سقوط غرناطة، فمثلًا أصدر الكاردينال سيسنيروس أمرًا سنة 1501 بحرق مكتبة «مدينة الزهراء» التي تضم كثير من الكتب بغرناطة، وسلسلةَ حرائق المكتبات في مدن الأرض المنكوبة على مر التاريخ[1]. عندما أراجع المصنفات القديمة المختصة بالمصنفين وآثارهم،ككتاب الفهرست لابن النديم، أقرأ مئات العناوين البائدة، والمبادة بدوافع سياسية واعتقادية وانتقامية، تارة بالحرق، وأخرى بغسل كتابتها بالماء، وثالثة بالإغراق، وبمختلف أفعال التدمير الأخرى. فقد تعرض تراث أديان وفرق ومذاهب للتدمير المريع،كما حدث مع المعتزلة وتضييع جواهر مؤلفاتهم. أحيانًا يلجأ المدون الرسمي للعقيدة لطمس مؤلفات علماء لديهم آراء تتعارض ورأيه، وإن كانوا من مجتهدي الفرقة ذاتها. الأقسى من ذلك أن يعمد أحدُ العلماء إلى ابادة مؤلفاته، كما فعل أبو حيان التوحيدي وغيره احتجاجًا على نكد الأيام. يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء: «وكان أبو حيّان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلّة جدواها، وضنّا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته. وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمّد يعذله على صنيعه، ويعرّفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه. فكتب إليه أبو حيّان يعتذر من ذلك... وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقّع، على ظماء برح منّي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به عليّ، وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة

(1) ذكر ناصر الحزيمي في كتابه «حرق الكتب في التراث العربي»، المكتبات التي تم حرقها وتدميرها في مدن الإسلام. صدر الكتاب عن دار الجمل ببيروت.

نحوي وما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمي إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء». وأضاف أبو حيّان التوحيدي، وهو يسوق أسباب ذلك الفعل الموجع: «وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم ويعشى إلى نارهم، منهم أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر. وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهدًا وفقهًا وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول. وهذا يوسف بن أسباط، حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلّنا العلم في الأول ثم كاد يضلّنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل من أردناه. وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك. وهذا سفيان الثوري مزّق ألف جزء وطيّرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفا. وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار»[1].

(1) ياقوت الحموي، كتاب معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ترجمة أبو حيان التوحيدي، ط1، 1414ـ1993، دار الغرب الإسلامي، بيروت. النص منقول من نسخة المكتبة الشاملة.

- 7 -

لم تعد الحاجةُ للكتاب اليوم كما كانت

الاهتمامُ بالكتاب صفةٌ حميدة، يحكي جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» عن أحد أصدقائه من تجار النجف الأميين،كان يمتلك مكتبةً واسعة تضمُّ آلافَ الكتب، يشتري كلَّ جديد ويجلّده تجليدًا فاخرًا، ويودعه في مكتبته. لا أستطيع المكوثَ ببيتٍ بلا مكتبة، لم أتذمّر يومًا أو أندم من هذا الشره إلى شراء الكتب، ولا أنزعج من تكرار محاولاتي بإعادة تأسيسِ مكتبةٍ كلّما خسرت واحدة منها. في حوزة قم أنشأتُ مكتبةً في ثمانينيات القرن الماضي. في قم سوقٌ من عدة طوابق يضمُّ مجموعةَ مكتباتٍ لبيع الإصدارات العربية. معظمُ أصحابِ المكتبات من الأصدقاء العراقيين، أتردّد عليهم باستمرار، وأشترى ما أراه جديدًا. أسعار الكتب رخيصة، تنامى رصيدُ المكتبة عاجلًا، بمدة قصيرة تجاوزت مقتنياتها 1000 كتاب. تواصل الشراءُ فضاق البيتُ بالكتب، بعد أن تجاوز عددُها 6000 كتابٍ ومجلة. أمسى مصيرُ المكتبة البيعَ أيام إصدار مجلة قضايا إسلامية معاصرة سنة 1997، وسلسلة الكتاب الرديفة لها. اشترت الكتبَ بمجموعها مكتبةٌ عامة قيدَ الإنشاء تخطّط لأن يكون رصيدُها مليونَ كتاب. اكتأبت العائلةُ واكتأبتُ أنا، وكأن قدرَنا الأبدي رثاءُ مكتباتنا، عندما يتكرّر فقدانُ المكتبة، لأيّ سبب من

الأسباب، يغرق الإنسانُ بكابوس خسرانِه كنوزَه النادرة. المكتبةُ مكونٌ جميل لذاكرتنا، ومستودعُ أثمن مقتنياتِنا. زوجتي أم محمد اكتأبت جدًا وعاشت ساعاتٍ مريرة، أجهشت بالبكاء لحظة نزولها للطابق الأسفل، لحظة صدمت بوحشة هذا الطابق؛ وكأنه يرثي رحيلَ المكتبة وهجرانَها للبيت الذي احتضنها وآواها. تصف حالتَها وهي تبكي بكاءً شديدًا، فتقول: شعرتُ كأن روحي انترعتْ مني وهرولتُ بعيدًا عسى أن أدرك المكتبة. كنتُ أقترُ على نفسي بكلِّ شيء غير أساسي، لفرط شغفي حدَ الهوس بالكتب، كنتُ أغفل فأقدّم شراءَ الكتاب على تسوق الفاكهة لأولادي. لا أنسى كلمةً، كلّما تذكّرتها شعرتُ بتأنيب ضميرٍ من تقصيري، قالها ولدي محمد باقر «مواليد 1982» حين كان طفلًا، وهو يراني لحظةَ عودتي للمنزل لا أحمل إلا عدةَ كتبٍ، وأنسى شراءَ الفواكه عدةَ أيام، فقال بهدوء ولطف: بابا ليش «لماذا» ما تشتري لنا فواكه!

بعد بيع المكتبة، لم أترك منذ الأسبوع الأول الإدمانَ المزمن على زيارة سوق الكتب، كذلك تكثّفت زياراتي لمعرض الكتاب،كنتُ أذهب مرة أو مرتين، صرتُ أحضر أكثرَ أيام المعرض. أنهمك من الصباح إلى المساء بشراء كمياتٍ من الإصدارات المتنوعة لدور النشر العربية، أسعارُ الكتب مناسبة، أيام وزارة محمد خاتمي لوزارة الإرشاد ثم رئاسته للجمهورية كانت الوزارة تقدّم دعمًا سخيًا لمطبوعات الناشرين المحليين بالورق، وتدعم مختلفَ مبيعات كتب المكتبات من خارج إيران في المعرض. تراكمُ الكتب دعاني لتخصيصِ طابقٍ بتمامه في البيت للمكتبة. استوعبت المكتبةُ المجموعاتِ الكاملة لدورياتٍ عربية وفارسية معروفة، تصلني باستمرار عبر البريد دورياتُ دراساتٍ

ومجلاتٌ ثقافية عربية تصدر في بيروت والقاهرة وبلاد الخليج ولندن. راسلتُ مجلةَ المستقبل العربي أطلب منحي اشتراكًا مجانيًا، لم يهمل مركزُ دراسات الوحدة العربية رسالتي؛ فبعث لي جوابًا يشير إلى تسجيل اشتراكٍ ريثما يتبرع أحدُ أصدقاء المركز باشتراكاتٍ مجانية لقراء المجلة، وصلني العددُ الشهري للمجلة بعد مدة وجيزة، مرفقًا بفاتورة اشتراك سنوي أهداه متروك الفالح الذي لم أكن قبل ذلك سمعتُ اسمه، الفالح سعودي أحد أصدقاء المركز المعروفين. يتجدّد هذا الاشتراكُ التطوعي لسنواتٍ متوالية، فتصلني المستقبلُ العربي بلا انقطاع، تمنيتُ أن ألتقي هذا الإنسانَ الكريم يومًا لأشكره.

أضحى رصيدُ الكتب والدوريات يتضاعف سريعًا في المكتبة، في الألفية الجديدة نشأت لدي مكتبةٌ ثانية مودَعة في بيروت، يتراكم فيها فائضُ كتبٍ ودورياتٍ أشتريها من دور النشر اللبنانية، في كلِّ مرةٍ يزيد ما أنقله بعد عودتي في الطائرة عن الوزن الذي أستطيع حملَه. بعد عودتي للوطن وإقامتي ببغداد تكوّنت بالتدريج مكتبةٌ أخرى تملأ اليوم كلَّ غرف البيت. تجمع مكتباتي نحو 30000 من الكتب ودوريات الدراسات والمجلات الثقافية. لم أعد أحتاج الكتبَ لمطالعتها إلا قليلًا بعد شيوع الكتب الإلكترونية، أحتاج الكتابَ اليوم بوصفه صديقَ العمر الأبدي، الذي مكث معي بعد مغادرةِ كثيرٍ ممن أحبّهم إلى الدار الآخرة، أو هجرتهم إلى بلاد نائية، بعد إكراه المواطن العراقي على العيش خارج أرضه، أو بعد أن عزلتهم الشيخوخةُ عن الحضور التفاعلي في الحياة. وجودُ الكتب في كلِّ بيت أسكنه يخفضُ الشعورَ بالاغترابِ الوجودي وقلقِ الموت. أتحسّس الكتبَ كائناتٍ حيّة تتغلغل في العاطفة، ويبهجُ

حضورُها العقل.كأنها تناديني بلغة عتابٍ حين أنشغل طويلًا بالكتابة والمطالعة على الكمبيوتر. أتحسّس مؤلّفي هذه الكتب كأنهم يتحدّثون إليّ وأتحدث إليهم، يضحكون فأضحك معهم، يبكون فأبكي، يتألمون فاتألم، يكتئبون فأكتئب. حتى لو لم أقرأ أيَّ كتابٍ لا أستطيعُ العيشَ في بيتٍ بلا كتب.

لم تعد الحاجةُ للكتاب اليوم كما كانت أمس، بعد الانتشار الواسع للكتاب الإلكتروني وحضوره في كلِّ مكان، وتعدّد مصادر المعرفة وتنوعها وتيسيرها للجميع عبر تطبيقات وسائل التواصل المرئية والمسموعة. أظنّ لإعلاءِ الكتّاب ومدمني القراءة، وأنا منهم، من قيمة الكتاب وتأثيره الاستثنائي الفعّال، وربما تمادى بعضُهم فنفى تأثيرَ ما سواه؛ بواعثَ كامنة في الأعماق، تشي بالشعور بتفوق ثقافتهم ومعرفتهم بالإنسان والعالم على غيرهم، وأن مَن لا يقرأ كأنه لا يعرف الحياةَ مثلما يعرفونها. الكاتبُ الذي يُنتِج الكتاب، ويقرأه، ويعيش مصطحبًا إياه بوصفه رفيقًا للعمر حيثما كان، ويرتبط بصلة عاطفية حميمة معه، يصرّ على الإشادةِ بدور الكتاب المعرفي والثقافي، وأثرِه في إنتاج معنىً لحياته وتسليته. تغذي النرجسيةُ تمجيدَ الكتاب والاحتفاءَ به أحيانًا، والمبالغةَ بتأثيره الواسع، والتعويلَ عليه في إحداث التغيير والتحولات الكبرى في زماننا، والنظرَ إليه بوصفه أساسا لبناء الفرد والمجتمع والدولة. تجاربُ الحياة علّمتني أن بعضَ الأشخاص، ممن لا يعيشون بين أوراق الكتب؛ يعرفون الإنسانَ جيدًا من خلال تفاعلهم اليومي مع الواقع، ربما أكثر مما نعرفه نحن جماعة الكتاب والقراءة، رأيتُهم أكثرَ قدرةً على التكيّفِ مع الواقع، وبناءِ علاقات وثيقة بغيرهم، منا معشر الكتّاب والمثقفين.

قراءةُ الكتب ليست الوحيدةَ اليوم المثمرة في التثقيف وتلقي المعرفة وفهم الإنسان والعالم. مشاهدةُ الأفلام وحضورُ السينما والمسرح العالمي، والأسفارُ والرحلات لمختلف بلدان العالم، والعيشُ مع الناس في المقاهي والأسواق الشعبية، وممارسةُ مختلف المهن الفنية، والفلاحةُ والتأمل في فضاء الطبيعة الممتع،كلُّها تفتح آفاقًا للحياة يتعلّم فيها الإنسانُ طرقَ العيش، ويتعرّفُ على الذات، ويكتشفُ ما يشترك معه من كائناتٍ في الأرض. ممارسةُ السياسة والعمل التنظيمي الحزبي والنقابي، وحتى التجارب المريرة في السجون، تمنح الإنسانَ خبراتٍ ودروسًا لا يعرف معظمَها إنسانٌ قلّما يتفاعل مع الواقع ونادرًا ما يكدح في الحياة، ولا يستطيع العيشَ بعيدًا عن أوراق الكتب.

أبقى صامتًا، عندما أستمع إلى ما يحكيه ولدي علي عن أفلام هوليوود، يشرح قصصًا بمضمون فلسفي عميق لأفلام المخرجين والممثلين المشاهير، وكيف تتكشف بها بشكل درامي تناقضاتُ الإنسان ومصائرُه وأقدارُه المفروضة عليه. علي مغرم بالسينما، بدأ يشاهد أفلام هوليود بعمر 14 سنة، نحو أربع ساعات يوميًا، منها تعلّم الانجليزية بطلاقة، وصار خبيرًا بعلم النفس. أفتقرُ لنمط ثقافته ومعرفته الغنية المتنوعة، أرى ثقافتي فقيرةً مقارنة بنوع ثقافته وجيله؛ ممن يمتلكون مصادرَ بديلة للمعرفة غير الكتاب. لم يقرأوا كثيرًا، إلا أن مصادرَهم في تلقي المعرفة غزيرةٌ تفرض عليك الاهتمامَ بها وتقديرها، خاصة في عصرنا الذي يزيح فيه الإنترنتُ وتطبيقاتُ وسائل التواصل الكتابَ والورقَ بالتدريج.

أدركتُ متأخرًا أن واحدةً من ثغرات شخصية مَن يعيش معظم

حياته في فضاء الكتب هي نسيانُ الواقع، والجهلُ بأكثر ما يطفو على سطحه، وما هو محتجبٌ في مدياته الواسعة وطبقاته القصية. لا يتعلّم الإنسانُ من الكلمات الا قليلًا، الواقعُ معلّمٌ عظيم، مَن يهرب من خوض معارك الواقع ولا يطيق الانغمارَ في شجونه، يخسر أكثرَ ما يزجّه العيشُ فيه من معارك مباغتة، ويظلّ عاجزًا عن معرفة كثيرٍ مما يضمره البشر، ويصدمه بعضُ الأصدقاء بمواقفهم المستهجنة أحيانًا، ويستغرب من الناس سلوكَهم الذي اعتادوا عليه. أحيانًا أعجز عن التعامل مع مواقف جارحة لبعض الناس، أركن إلى الصمت بذهول كأني أخرس، لجهلي بالموقف الملائم في مثل هذه المواقف المؤذية جدًا، أعرف أن الصمتَ في مثل هذه المواقف ضربٌ من الهزيمة. الواقعُ يمنحنا فرصة للتعلّم تفتقر إليها الكتب، الواقع تدريب مستمر على كيفية العيش بأقل ما يمكن من مواجع. يتطلب التعلّمُ العملي أن يعيش الإنسانُ الواقعَ بكلِّ تناقضاته، ويتذوق ما يحفل به من عطايا، ويتجرّع مراراته، ويكتشف ما تفرضه عليه الحياةُ من ضروراتٍ لابدّ منها.كنتُ لا أمنع أولادي من اللعبِ في الشارع والاندماجِ بجيلهم، أساعدهم على اكتشافِ الواقع بأنفسهم. أرشدهم، وأراقب من بعيد سلوكَهم، ولا أتدخل في خصوصياتهم.

أنا وأمثالي يفاجؤنا الواقعُ، وأحيانًا يصدمنا سلوكُ الإنسان، بما لا يفاجئ ولا يصدم غيرَنا، ممن اختبروا الواقعَ ومحصوه؛ عبر التوغلِ في طبقاته الظاهرة والخفية، ووعي طرائق العيش، ومواجهة مختلف المواقف الأخلاقية واللاأخلاقية، وشهودِ ما يفعله الناسُ من تمويهٍ ومراوغةٍ واختباءٍ خلف الأقنعة. الكتبُ تسكن الكاتبَ

مثلما يسكنها، لذلك يعيش مغترِبًا مَن يغادر الحياةَ ويطمر نفسَه في أوراقها. هذا الإنسانُ يظلّ يفتش عن حياةٍ على شاكلة الكتب التي يقرأها، وتلك الحياة لن يراها أبدًا، مهما بحث عنها في كلِّ زوايا الواقع المعيش.

هذه ليست دعوةٌ لترك القراءة والكتابة، لا يمكنني الاستغناءُ عنهما، ابدأ صباحًا بالقراءة والكتابة إلى أن أنام كلَّ يوم. أتحدث عن ضرورة تلقي دروس العيش من الواقع مباشرة، والتعرّف عمليًا على ما يضج فيه من تناقضات، لا يعرفها مَن يهرب منه ويقيم في فضاء الكتب. الواقعُ في مكانٍ آخرَ لا في الكتب، الواقع معلّم عنيد لا يتعلّم منه إلا مَن يتوغل فيه، ويخوض غماره بمهارة وحكمة.

- 8 -

الكتابة بوصفها مِرَانًا متواصلاً

وجدت نفسي، منذ بداية عقدي الثاني، مولعاً بالمطالعة، ثم بعد ذلك أو نحوه صرت أحلم بالكتابة أيضاً، مع أن هذا قد بدا لي معجزة لن يجترحها إلا بشرٌ من طينة أخرى، أو طيشًا لن يصيبه إلا سهمٌ خارق. حين مضت على الولع والحلم سنوات قليلة اخترتُ أن أكتب حكاياتِ أمي وصاحباتها بلغةٍ تخرجها من العامي إلى الفصيح، وأكتب ما ينسجه خيالي من حكاياتٍ عابرة وقصص قصيرة. لا أتذكر أني عرضتُ ما كتبتُ على أحد، أكتفي بكتابتها وأشعر ببهجةٍ لبرهة، وأعود في اليوم الثاني لقراءتها بهدوءٍ فينتابني الشك، وأحيانًا أدخل اكتئاباً عابراً يحرّضني على تمزيقها. تضاعفت المحاولاتُ بمرور الزمان، وتخبّطتُ بفوضى التجريب والتكرار الممل، ممزوجين بشغفٍ غريب، يلابسه خوفٌ يبلغ حدَّ الذعرِ أحيانًا، ويأسٍ من النجاح في التجارب التالية. كنت دائمَ التفكير بما عليّ فعلُه كي أظفر بخطوة النجاح الأول في هذه الصنعة، قادني تفكيري إلى ممارسة أشكالٍ متنوعة من الكتابة، فانتقلتُ فجأةً للشعر، وان كنتُ أنفر من أكثر الشعر الشعبي، ولا أتذوق أحيانًا ما أقرأه من دواوين شعراء كبار. عثرتُ صدفةً على قصائد نثر منشورة في بعض المجلات والصحف، ورغم أنها لم تكن ملهمة ولم أفهم أكثرَها،

لكنها ورطتني بوهم أن كلَّ إنسانٍ يمكنه كتابةُ الشعر، خاصة إن كان من هذا النوع. كنت متعجلاً فبدأتُ بديوانٍ فرغتُ من وضعه، على ما أظن، بعشرة أيام، وقد اتسع له دفترٌ لا أتذكر عددَ صفحاته، تضمن ما لا يقلّ عن عشرين قصيدة، بعضُها يحتّل عدة صفحات. كل وقتي كان مكرّسًا للشعر تلك الأيام، أكتب القصيدةَ وأعود للشطب والحذف والإضافة بلا توقف. جرى ذلك ومضى دون أن أُخبر أحدًا؛ إذ تواطأت مع نفسي على أن أكتب لها، وأقرأ لها، وأحتفظ بدفتري بمكانٍ خاصّ لئلا يراه غيري، مؤملا أن ما أكتبه ضربٌ من الشعر ليس بالضرورة أن يمتثل لمعايير الشعر المتداولة.

بعد الفراغ من كتابة الديوان تركتُه عدة أيام، ثم رجعتُ لقراءته بتأملٍ وهدوء، فأنا لا أكتفي بقراءة واحدة، بل أعود لأقرأ ما فرغت منه عدة مرات، إلى أن اقتنعتُ أنه هراءُ مراهقٍ لم يُخلق للشعر. استفقتُ، في واحدةٍ من محطات ضياع اكتشاف دروب الكتابة الوعرة، من هذا الوهم الذي مكثتُ في أسره عدةَ أشهر ومزّقتُ الديوان. وبسبب حنقي على هوسي الشعري أحرقتُ ما مزّقتُه، لئلا أعود لمثل هذه المحاولة العقيمة.

ربما أشعرني هذا الموقف بشجاعةٍ أمام نفسي، وقدرةٍ على محاكمتها مبكرًا، وفضح أحلامها وأوهامها الزائفة. كل ذلك كان يجري من دون أن يعرف أحدٌ من الأهل والأصدقاء؛ فأنا أبتعد عن كلّ أحد حولي عندما أكتب، وأخفي عنهم ما أكتب، أمزّق ما أكتبه بعد أيام، خشيةَ أن يُفتضح ضعفي وهشاشتي أمامي أولًا حين أعود لقراءته، وربما أمامهم إن عثروا عليه، وهذه واحدةٌ من أوهام الكمال الزائف الذي كنتُ وأمثالي ضحيتَه من تربيةٍ خاطئة للآباء والأمهات في القرية.

العائلةُ ومجتمعُ القرية يعاملاني وأمثالي بأنّا أكبرُ من مرحلتنا العمرية، وذلك ما منع عنا أبسط اندفاعات وتلقائيات الطفولة، وتسبب بحرماني من اللعبِ والعبث الخلّاق الذي يوقظ طاقةَ الإبداع ويرسخها لدى الطفل، وممارسةِ حريتي في التعبير عن الطفولة البريئة والمتنوعة. وربما غطس هذا الحرمانُ عميقًا، بما أجد من رغبة غامضة وكامنة في داخلي لمشاركة أطفالي لعبهم مع أني لم أجد قدراً من شجاعة الطفولة في عمرٍ متقدّم.

عندما انخرطت بالدراسة في حوزة النجف سنة 1978 طلب منا أحدُ مدرسي أصول الفقه كتابةَ بحث في سياق دراسة الفقه وأصوله، وأمهلنا، نحن تلامذتَه، أسبوعين. كثّفتُ جهودي للمطالعة والكتابة في هذا الموضوع، فجاء البحث بنحو ثلاثين صفحة، أعدتُ كتابتَه أكثر من مرة، وبعد أيامٍ من تسليمه للأستاذ أعرب عن إعجابه به، ونبّهني إلى بعض الثغرات والأخطاء. كانت المرةَ الأولى لتعريض كتابتي إلى مباراةٍ مكشوفة، والاحتفاءِ بها بين مجموعةٍ من أقراني. كرر الأستاذ الطلب من تلامذته مرة ثانية وثالثة، وقد حفّزني موقفُه على الاستغراقِ في المراجعة، والتريّثِ بالكتابة، وإعادةِ تحرير المسودات عدة مرات. في المرتين اللاحقتين أعرب الأستاذُ عن اهتمامه الخاص، وحثّني على الاستمرار بالكتابة. الطريفُ أن هذا المدرس لم يكن يتقن الكتابة، فقد قرأتُ له بعضَ الكتابات بعد ربع قرن فرأيتُها بمثابة الخطب المنبرية، لا تنطبق عليها معاييرُ الكتابة بوصفها «صناعة الإنشاء» كما يعرفها أهل البيان.

في سنة 1978حضرتُ، مع نحو 25 طالباً، حلقة كان الأستاذُ فيها

الشيخ أحمد البهادلي، وهو علّامةٌ متمرس بعلمه وبيانه، عذبٌ في التعليم، ذو شخصيته جذابة، قرأتُ قبل حضور درسه كتابًا له حول العقيدة يستوعب محاضراتِه في كلية الفقه في النجف، ومنذ ذلك الوقت وأنا أتمنى التعرّفَ عليه والتلمذةَ في حلقات درسه. قبلها كنت سمعتُ من أستاذنا في كتاب «معالم الأصول» الشيخ صالح الصالحي ثناءً على البهادلي، وصفه بأنه من أساتذة «كفاية الأصول» الجيدين، وأن الأستاذَ الذي يتقن تدريسَ هذا الكتاب بجدارة مجتهدٌ استناداً للتقليد التعليمي المتعارَف في الحوزة. كنت أتطلع لأن يكون شيخُنا البهادلي أحدَ المراجع في النجف، ولم أعرف إن كان منعه زهدُه من التصدي، أو أنه لم يكتشف طريقَ الوصول لمقام المرجعية الشائك. في خاتمة تدريسه أخبرنا بأنه يريد امتحانَنا تحريريًا. لم يكن الامتحانُ التحريري متعارفًا وقتئذٍ في حلقات الدروس الحّرة في الحوزة. بعد أن امتحن في اليوم التالي تلامذتَه جاء الأستاذُ بالأوراق غاضبا، كانت الأوراقُ بيديه غير أنّه لم يوزعها، لعل علاماتِ التلامذة الضعيفة منعته من ذلك. تحدّث نحو ساعة كاملة موبخًا ومنذرًا بالتيه في هذا الطريق، لو واصل التلامذةُ التكاسلَ والإهمال والافتقار للجلد والمثابرة، وذكر حكاياتٍ مؤلمةً عن بعضِ رجال الدين الذين لا يكترثون بالتعليم الرصين في الحوزة، ولجوءِ بعضهم لممارسة الشعوذة وخداع العامة؛ وأردف القولَ بحكايةٍ ملهمة عن مثابرة أخوين كانا في غرفةٍ واحدة بأحد المدارس الدينية بالنجف، كانا يطالعان في الليل تحت ضوء مصباحٍ مُضاء بالنفط، وعندما يغفو أحدُهما يضع علامةً على زجاجة المصباح الشفافة، ليسعى في الليلة التالية أن يعوّض ما فاته في ليلةٍ ماضية، إن فاقه أخوه في ساعات السهر

بمواصلة المطالعة. تألمتُ من توبيخ مدرسنا، وذهبتُ إليه بعد انصراف بعض الزملاء لأعرف نتيجتي متردّدًا ومضطربًا، حتى أن الكلمات كانت تجفّ على شفتي قبل أن تنبت، غارقاً بين حياءٍ ووجل تهيباً من توبيخٍ إضافي، ولكن الشيخُ البهادلي قال لي بحماس: لا تقلق، أنت الوحيد الذي حصلت على درجة 100. ظلّ موقفُ أستاذي هذا يمدّني بطاقةٍ مضاعفة كلّما خارتْ عزيمتي، وعشتُ حالةَ وهن، وأدركتني الهشاشة، والشعورُ بالعجز عن الكتابة.

هذه محطةٌ من تجربتي المبكرة في تمارين الكتابة، وكلُّ تجربة تعكسُ صورة الذات، وتنكشف فيها مواهبُها وقدراتُها، وأقدارُها وأحوالُها وظروفُها، وثقافتُها، ونمطُ رؤيتها للعالَم، ومحطاتُ حياتها.

- 9 -

تعلمت من الكتابة ما تعلمته من القراءة وأكثر

لا أزال، منذ بدأت، أتهيّبُ الكتابة كثيراً، ومع كل محاولة أتهرب من جديد، وغالباً ما ألتمس الأعذار بانشغالي، أو بندرة ما يتوافر لدي من وقت فائض أُخصصه للكتابة، وربما هربت إلى حيل نفسية، تنقذني من هلع الكتابة. كنت أحسب أني مصاب بشلل الإرادة، وأني أتفرد بين غالبية عظمى بذلك، غير أني اكتشفت أن معظم الكتّاب يعانون من وجع الكتابة. ولعل من أقسى توصيفات هذا الهلع والتهيب ما تحدثتْ به الأديبة آني إيرنو الفائزة بجائزة نوبل للأدب عام 2022، من أن «الكتابة كخنجر»[1]، أو قول إرنست همنغواي عندما سُئل عن أفضل تدريب فكري لمن يريد أن يصبح كاتباً: «إن عليه أن يذهب ويشنق نفسه، لأنه سيجد أن الكتابة صعبة إلى درجة الاستحالة. ثم ينزل عن المشنقة، ويفرض هو على نفسه أن يكتب على أفضل ما يستطيع للبقية الباقية من عمره. عندها ستكون لديه قصة شنقه كبداية»[2]. يبدو أن هروبي وغيري من مشقّة الوقوف على هذه الحرفة

(1) مجلة نزوى «مسقط»، ع 80 «2014».

(2) الياسين، نايف «ترجمة وتحرير». متعة المتخيل: حوارات مع كتّاب عالميين. دمشق: دار التكوين، 2009، ص 14.

يكشف عن شعور غاطس في الأعماق، من خشية الفشل في إنتاج نصٍّ لا يرضي المتلقّين ويفوز باعترافهم، مثلما يخشى الفشل كلُّ شخص يباشر عملاً نوعياً في حياته، فيحترز ويحذر كثيرًا، قبل أن يقدم على أية خطوة في إنجازه.

لا شكَّ أن طلب الكمال، والرغبة بظفر منجز فائق الجودة، وكذلك المبالغة بالتهيب من الوقوع في مغامرة الأفعال الصعبة، يصبح أحياناً عائقاً يمنعنا من الاقدام على الفعل، ويقعدنا عن المباشرة بالعمل، أو يعطل الإصرار في منتصف الطريق على المضي حتى جني الثمرة. في حالة كهذه لا ينجح إلا أولئك المغامرون، ممن لا يتهيبون الاقتحام، ولا يترددون في الاقدام على العمل، مهما كان شاقًا وخطيرًا، فإن الأعمال الخطيرة لا تنجزها إلا الهمم والعزائم الكبيرة. ومع ذلك فإن طريقتي في الكتابة منهكة، الكتابة تعذبني وتستنزفني، وربما نقلتني فجأة إلى منطقة الخطر.

بدأت تمارينُ الكتابة في المرحلة الثانوية. لم تتشكل لغتي إلا بمشقة بالغة، ولم تنضج وتصطبغ ببصمتها المميزة إلا بعد سنوات من التمارين المتواصلة المملة. أخيرًا اغتنت لغةُ كتاباتي بمعجمها، وصارت تفرض عليّ نوعَ الكلمات وأسلوبَ التعبير وبناء النص. تؤثر وتتأثر هذه اللغةُ بطريقة تفكيري، كأني وقعتُ في أسرها، ولم أعد قادرًا على انتزاع نفسي منها. وعندما يكرّر بعضُ القراء الطلبَ بأن أكتب بلغةٍ بديلة أعجز عن تلبية رغبتهم، بعد أن وقعتُ في شباك الألفة مع اسلوب خاص. لم أدعِ يومًا أن الأفكارَ الواردة في كتاباتي كلها مبتكرة، لم يبلغها أحدٌ من قبل. كتاباتي خلاصةُ مطالعات بدأت

في مرحلة مبكرة من حياتي لم ولن تتوقف، ولازالت، كما كانت أول مرة، خلاصة عواصف ذهنية وتأملات فرضها عليّ عقلي الذي لا يكّف عن التفكير، وأوقدتها مشاعري وانفعالاتي، وما ترسّب بأعماقي من جراح محطات الحياة المتنوعة، مما لا أراه ولا أدرك طريقةَ تأثيره في فهمي.

الكتابةُ داءٌ ودواء. قبل الكتابة أقلق، حين أفرغ منها أهدأ، بعد النشر أسكن، وأخيرًا أنسى ما كتبتُ لحظة أنشغل بما هو جديد. وإن كنتُ لا أغادره نهائيًا، ربما تستجد رؤيةٌ موازية أو مضادّة لرؤيتي؛ فأكرر العودة إلى النص باستمرار إضافةً أو حذفًا أو كليهما، من غير أن أتعجل النشر، بل أتركه ريثما يتخلق على مراحل ويرتسم بصورة ترضيني. ذلك الحال بعد نشره؛ أظل أطارده في طبعات لاحقة، لأهذبه وأستبعد وهنه ما أمكنني ذلك. لا أرى كتابتي نصًا مقدسًا،كما يرى بعضُ الكتّاب كتاباتِهم، ولا أزال ينتابني وجل وقلق من مصير هذه الكتابة ومآلاتها.

لا أستطيع مغادرةَ النصّ الذي أنشغل به، أخضع على الدوام لضغطٍ نفسي يكرهني على العودة للنظر فيه بين حين وآخر، ولا ينقذني منه أحيانًا إلا النشر. اللغة كأداة هي ما يرهقني في الكتابة أكثر من الفكرة، أعيد تحريرَ النصّ عدة مرات. حين أكتب أمارس وظيفةً تشبه وظيفةَ المهندس المعماري، الذي لا يغفل عن وجه البناء الجمالي. أغلب الأحيان اقتنص للكتابة لحظات أجد فيها المعاني حاضرة أو محضرة كإلهام، فقد يرهقني العثورُ على الكلمات المناسبة للسياق من القاموس اللغوي المخزن في ذاكرتي، وتتعسر أحياناً ولادةُ الكلمة في محاولاتي فألجأ إلى خميرة قواميس اللغة ومعاجمها.

ليست هناك لغةٌ مكتفية بذاتها، إذا اتسع أفقُ المعاني توارت الكلماتُ خلف الرموز والاستعارات والمجازات. أعرف أن كتابتي لا تلبث أن تبدو لي أحياناً ناقصةً وواهنة بنحو ما من أفكارها وكلماتها وعباراتها، مهما حاولتُ ترميمها وتنقيتها، وذلك ما يحثّني على إعادةِ النظر فيها وتعدد محاولات تحريرها على الدوام. اللايقين حالة تستولي عليّ حين أكتب، ويعيدني إلى تأمل ما تتضمنه من مفاهيم وآراء ومواقف، فأعمد إلى غربلتها وتمحيصها مجدّدًا، واستبعاد ما ينكشف من هشاشتها واعوجاجها. وليس نادراً أن أعيد كتابةَ الفقرة مرات عديدة، أمعن النظرَ في لغتها، أحذف الكلمات الركيكة، أحرّرها من الفائض اللفظي الذي يستنزفُ طاقةَ المعنى وينهكه.

أعرف أن الجملَ القصيرة أشدّ إيقاعًا من العبارات الطويلة، الكاتب المتمرّس يقتصد في الكلمات، ويكثّف النصَّ ما أمكنه ذلك. لاحظت أن بعضَ الكتاب يربك إيقاعَ النصّ بالإفراط في استعمال حروف العطف وأدوات الوصل والربط والاستئناف، وربما تظهر نصوصُه متلاصقةً مدمجة بلا حدود، وربما يجعل الكتابةَ سائلة؛ تغطي جملةٌ واحدة صفحة أو أكثر فيها. لا أزال أمتثل لشروط البراعة عبر الحضور في الإيجاز، فكل صفحة من الكتب الخالدة تختزل ألفَ صفحة، وكلُّ عبارة تضجّ بألف عبارة، وتتضمن كلُّ كلمة ألفَ كلمة مضمرة. الكتابةُ فنُّ الحذف والاختزال.

ما أريد تأكيده دائماً أن كلّ كتابة أنشرها مسودةٌ لصياغة ومراجعة لاحقتين. وهكذا تتوالد كتابةُ المسودات. الكتابُ الذي أنتهي منه لا أراه نهائيًا، إذ يتبعه تحرير مضاف وتنقيح ومراجعات متعدّدة قبل أن

يبلغ عتبة دار النشر. بعد نشره تتحوّل هذه الطبعةُ إلى مسودة لطبعة لاحقة، وهكذا تتبقى كتاباتي مسوداتٍ مفتوحةً أعجز عن النظر إليها بوصفها نهائية، وكأني أحلم بكمال يعانده الاكتمال. ربما لا أصل للشعورِ باكتمال النصّ، ونقائه من الهشاشة والثغرات، وصفاء صوته، وقوة طاقة المعنى الذي يريد بلوغه، فيضطرني إلى أشواط تقويم وترميم وإثراء متعددة ومستمرة. وهذا ما يبرر، لي على الأقل، نوبات التردد عن نشره، والقلق حين صدوره، أو حتى الشعور بأنّي قد خنتُ ذلك النصَّ المؤجل، أو خنتُ القرّاءَ ممن يتطلعون إلى أن يجدوا في كتابتي ما يبحثون عنه.

القارئ يبهجه الضوءُ بغضِّ النظر عن المصباح الذي يصدر منه. وأنا يهمني القارئ حين أكتب. أعرف ذائقة القارئ المحترف، وعدم إطاقته الكلمات المقعرة والعبارات المكرّرة والشعارات المبتذلة لغةً ومضمونًا، لا أريد أن أخون مَن لولا دعمه واعترافه لنضبت لدي طاقةُ الكتابة. أحسب أن القارئ يتطلع إلى اكتشاف صورة الكاتب الحقيقية، وما يأمله في كتاباته. القارئ الذكي مولعٌ بكلِّ ما حجبناه عنه، ولو بادرنا للاعتراف بضعفنا البشري بشجاعة فربما لا نحتاج إلى دعاية أو ترويج لما نكتب. أكثرُ الكتابات المنشورة تخفي أكثرَ مما تعلن، وتبرّر أكثر مما تعترف، وتتكتم أكثر مما تبوح، وتموّه أكثر مما تصرّح، وتخادع أكثر مما تصدق، أجد بعضَ الكتّاب يتمرس بصناعة الأقنعة، وهو يحاول حجبَ تضخم ذاته وراء تلك الأقنعة.

مضافًا إلى خوفي من ممارسة الكتابة، كنتُ أخاف في البداية من عرض ما أكتب على الآخرين، وحين امتلكتُ شيئًا من الجرأة بعد

مدة فقدّمتُ ما أكتب لبعض الخبراء، كنتُ أحذر بشدّة من أيِّ نقد، حتى أدركتُ لاحقًا أن استمرارَ هذا الحذر سيعيقني من الإقدام على النشر، وربما يعجزني عن خوض مغامرة الكتابة. اقتنعت أنه يمكنني التخفيف من ذلك وخفضه بعد ترويض نفسي على الاعترافِ بأخطائي وضعفي، والإعلانِ عن استعدادي للتعلّم والإصغاء لحكمة وخبرة الآخرين، والإصرارِ على المضيّ في تمارين الكتابة وإعادة الكتابة. رغم أن أكثر الناس في مجتمعاتنا ينظرون إلى الاعتراف بالخطأ بوصفه فضيحة، استطعتُ بمشقة أن أمتلك الاستعدادَ للاعتراف بالخطأ الذي كان مُحرِجًا جدًا أول الأمر، لكنه عبر المران صار أقل إحراجًا. كلما أعلنتُ عن أخطائي قبل أن يعلنها غيري تخفّفتُ أكثر، واستطعتُ أن أجعل منجزي أكمل. جربتُ أن ليس هناك ما ينقذ الإنسانَ من عبء الشعور بالعجز وخوف الفشل إلا سبقه للبوح بفشله وإعلانه بأنه فشل في محاولاته الأولى والثانية والثالثة وهكذا. أسعى أن تتضمن كتاباتي بوحًا بأخطائي ووهني وهشاشتي ما أمكنني ذلك في مجتمعٍ يسيء تفسيرَ ذلك.

الكتابة ليست عملاً فردياً بحتا، كل كتابة حقيقية تختزل سلسلةً طويلة من قراءة كتب متنوعة، وكلَّ ما تشبّع به وتمثّله وعيُ الكاتب، وترسّب في لاوعيه، لا يتكون الكاتبُ إلا بعد أن يقرأ كلَّ شيءٍ وينسى معظمَ ما قرأ. الكتابة منجز مشترك، تنصهر فيه عناصرُ مختلفة لأعمال طالعها الكاتبُ فتولّدت منها مادة مركّبة تتكلم بلغته وتعبّر عن تمثله لها وتفاعلاته معها، ويتعرّف عليها القارىء كنسخة من صورته الصوتية.

في كلّ نصّ ترقد طبقاتٌ من النصوص، في كلّ نصٍّ تتكلم نصوصٌ متنوعة تحيل إلى معجمِ الكاتب اللغوي ومرجعياتِه ورؤيتِه للعالم، وتتكشّف فيه ثقافتُه وما أنتجته قراءاتُه وتفكيرُه وتأملاتُه. في كلّ نصّ ثري نستمع لصوتٍ تنصهر فيه ألحان عدّة أجناس من الكتابة، لتتوحد، أخيراً، ألحانُها وكأنها نغمٌ واحد. الكاتب الجادّ يلاقي الجميع، ويتعلّم من الجميع، يلتقي بما هو مشتَرك إنساني، ويتعلّم من فرادة المتفرّد.

كتاباتُ كلّ كاتب تغترف من نهرٍ واحد، بعضُها يغذّي بعضَها الآخر. كلُّ كاتبٍ يكتبُ كتابًا أساسيًا واحدًا، ما قبله تمارين وما بعده تنويعات. الكاتب الحقيقي تصنعه الكتابةُ بقدر ما يصنعها، وتعيد بناءَ ذاته من جنس ما يبنيها، مذكِّرةً بأن البناء بمواد هشّة يبني كاتبًا وكتابةً هشّين، البناء بمواد متينة يبني كاتبًا وكتابةً متينين. وبنحو لا يُدرك بسهولة فإن الكاتبُ الصبور يتعلّم من الكتابة أكثر مما يتعلم من القراءة، إذ يخرج بعد الفراغ من كلِّ تأليف أو تصنيف بوعي أعمق لذاته ولغيره، وبرؤيةٍ أشدّ وضوحًا للعالَم من حوله، تضع ذاتَه في سياق صيرورة وجودية تتغذّى بالكتابة وتغذّيها.

الكتابة لدي تمارينٌ على وعي الحياة، عبر اكتشاف أسرار الذات، وما يخفيه الإنسان، وكيف أستطيع أن أنجو بنفسي من أهوال هوس النّاس وصخب الحياة من حولي، وأربح سلامي الداخلي، التحدي الذي يستفزني في الكتابة يؤلمني بقدر ما يعلّمني. علمتني الكتابة أعمق مما علمتني القراءة، مثلما علمني التعليم ما هو أثمن مما علمتني التلمذة. بعد الفراغ من كلِّ كتاب أخرج بوعي أعمق، وبرؤيةٍ أوضح للعالَم. ومن

ذلك، أو بسببه، لم أجد نفسي خارجَ الكتابة منذ أكثر من 45 عًاما تقريبًا، على الرغم من أني أحبّ القراءةَ أكثر من الكتابة، وإن كنتُ أكتشف المزيدَ من الطبقات العميقة لذاتي، وأشعر كأني أعيد تشكيلَها من جديد بالكتابة. أكتب رحلتي الأبدية لاكتشافِ الذات واكتشافِ الناس من حولي، واكتشافِ أجمل تجليات اللّٰه في الوجود. أحاول تأملَ أسئلتي وإعادةَ النظر في إجاباتي، وتعميقَ البحث فيها والتعرّفَ على ثغراتها، والسعيَ للظفر بإجابات أكثف وأدقّ.

- 10 -

الكتابة بوصفها تجربة وجود

مَنْ يعيش الكتابةَ ويتذوقها بوصفها تجربةَ وجود تتحقَّق ذاتُه بفعل الكتابة بطورٍ أعمق.كتابةُ السيرة بهذا الشكل من أمهر أنواع الكتابة وأكثفها وأثراها.كتابة السيرة تعني إعادةَ بنائها بوصفها طورًا راهنًا لوجود الإنسان يبعث في حياته ولادة مستأنفة. يمكنُ أن تكونَ هذه الكتابةُ ممارسةً ممتعة للعيش؛ تجدّد حضورَ الكاتب في العالَم، إن كان يستطيع أن يحقّقها عبر استثمار أرشيفِ الذاكرة وتوظيفه بإتقان يستأنف حضورها اليوم، بنحوٍ يحاكي الأمس، وإن كان لا يكرّره؛ يبتكر فرادتَه ولا يشبه إلا ذاتَه.

أعيشُ الكتابةَ بوصفها أُفقًا أتحَقّق فيه بطور وجودي جديد. الصدقُ في التعبير عن الذات هو البدايةُ الحقيقية للكتابة. أنا مشغول بالذات وأنماطِ تحقّقها، وليس في إصدار الأحكام على الناس والخوض في شؤونهم وخصوصياتِهم.كتاباتي مرآة سيرتي الفكرية والروحية والأخلاقية، أكتب تجربتي في الكتابة كما تذوقتُها بوصفها تجربةَ وجود. تجربة الوجود فردية، كلّ ما هو فردي ليس ملزِمًا لأي إنسان. فشلتُ في أن أكونَ شخصيةً نمطية، أعرفُ أنّي لا أنفردُ بذلك، كلُّ مَنْ تكونُ الكتابةُ تجربةَ وجود في حياته لا يمكن أن يكونَ نمطيًّا.

يفرض كونُ الكتابة تجربةَ وجود على الكاتب ألا يصغي إلّا إلى ندائها، فبغير حضوره فيها يغيبُ الكاتبُ عن كلِّ شيء ويغيبُ عنه كلُّ شيء. لحظةَ يبدأ الكاتبُ الكتابةَ تأخذه إليها، لا تدعه يفكّر إلّا في فضائها،كلّما حاول الهربَ قبضتْ بنحو ما عليه من جديد، لا تتركه ما لم يمنحها كلَّ ما يمكن من ذكائه وقدراته الكامنة وصبره الطويل. الكاتبُ الذي يعيشُ الكتابةَ بوصفها تجربةَ وجودٍ تظل حياتُه الخاصة مؤجلةً أو غائبة.

عندما أكتبُ أقعُ في أسرِ ما أكتبُ، كأني في تيه صحراء، أحيانا أتخبط وأحيانا أهتدي، أحيانًا التخبّط يكشفُ لي دروبًا لم أعرفها من قبل. ليست لدي قواعدُ مُلزِمة للكتابة، ولا طقوس مفروض عليّ أن أخضع لها، ولا برنامج أُكره نفسي على الانصياع له، ولا خارطة رسمتُها أنا أو رسمها غيري. لا طقوسَ أتباهى بها في الكتابة، لا طريقة خاصة أو عادة مستحكِمة، لا أوقات صارمة دقيقة منضبطة؛ لأنها، بوصفها تجربةَ وجود، لها ولي تحققات مختلفة، قابلة لأن تُلهمني مرة أخرى، حتى وإن كانت شائقة وشاقة. ربما وبهذا المنطق غير المنتظم يقع الكاتب المفتون في أسرها، ولا يكون بوسع اندكاكه بها الفكاك منها والذهابُ إلى غيرها، مهما كانت غواية غيرها ومهما كانت مكاسبُها.

قناعاتي ماثلة في لحظة الكتابة، بما فيها ثباتي على أن أكون موضوعيًا؛ أعبر عن ذاتي كما هي بحياد ما أمكنني ذلك. وإن اضطرني ذلك إلى اعتراف معلن بصعوبة مثل هذا الحياد، ليس بوصفه قراراً، ولكن بما يتصف به الإنسان ككائن بارع في إخفاء عيوبه وثغراته، والتكتم على مواطن هشاشته ووهنه. أعجز عن أن أكونَ كاتبًا تحت الطلب أو أن

تكونَ كتابتي سلعةً للمساومة، وقد فشلت دائمًا أن أكون شخصيةً آلية،كما يفشل مَنْ تكون الكتابةُ تجربةَ وجود في حياته بالتماهي مع الآلات؛ لفرادة تجربة الوجود. يرى الكاتبُ الحقيقي في أطوار الكتابة أطوارَ وجود آخر، لا تفسح لحالة مملة بتكرار وجوده السابق. بما في ذلك ما يتحقق من تجسّدات إلهام الجروح، حيث لا يعود لسانحة التعافي أن تطمرَ أثرَ الألم. كتابةُ الجرح أعمقُ تجارب الكتابة وأوجعُها وأغزرُها معنىً، فعندما يكتب الجرحُ يشفى الإنسان.

يسعى الكاتبُ على الدوام أن يعثر على صوتِه الخاص، ولغتِهِ الصافية، وطريقِهِ الذي لا يمرّ عبر طريق غيره، طريقه الذي لا يوصله إلى نهايات مغلقة. لا يمكن للإنسان اكتشافُ الطريق حين يقاد كأعمى. هدفُ الكتابة أن يتلمس الإنسانُ الضوءَ الذي يهديه إلى الطريق، وبنور هذا الضوء يرسم خرائط الطرق القصيرة. مَن يعجز عن اكتشاف طريقه بنفسه يعجز عن الإبداع. عندما يقودك دليلٌ يعرفُ الطريقَ من دون أن تكتشفَ بنفسك الطريق، ستضيّع أثمنَ تجربة اكتشاف في حياتك، وتصبح كأنك معاقٌ يسير بغير قدميه.

لا أتقيّد بخطة في الكتابة، ولا أقيّد طلابي الذين أشرف عليهم في الدكتوراه والماجستير بخطة صارمة، أقول لكلٍّ منهم مارس اجتهادَك في كلِّ شيء، في الكتابة، وفي رسم الخطة. في أثناء الكتابة ربما تستجدّ لديك أفكارٌ ثمينة وتظفر بمعطيات إضافية، حاول أن تضيفَ أو تحذف، حاول أن تبتكر، تعلّم التفكيرَ الحرّ، تمرّن على أن تناقش ما تقرأ مهما كانت مكانةُ مَن تقرأ له. ليس المهم أن تكون خطتُك كسكة قطار لا تحيد عنها. الخطةُ الجيدة خارطةُ طريقٍ أولية تتسع أو تضيق أو تُستبدَل،

حاول البحثَ عن الاختلاف أكثر مما تعمل على الاستنساخ، حاول أن تفكر بعمق أثناء الكتابة، وراجع أكثر من مرة ما كتبتَ بهدوء وتأمل فيه بدقة. اكتب وأنت تستحضر آراءَ القراء النابهين ومواقفَهم من كتابتك.

عندما أكتب أفكر كثيرًا بالقارئ، وإن كنتُ أكتب لنفسي قبل الكتابة للقراء، أخاطب نفسي قبل مخاطبة القراء، وأعلّم نفسي قبل أن أكون معلّمًا لأحد. مشغولٌ على الدوام برحلتي في أعماق نفسي، واستكشافِ ما هو غاطسٌ في ذاتي. هذه الرحلةُ لا تتوقف، ولا تصل إلى نهاياتِها المغلقة، ولن تبلغ قاعًا أخيرة.كلُّ يوم يتكشفُ في هذه الرحلة الأبدية ما كنت أجهله عن ذاتي، وعن الناس من حولي، وما لا أعرفه من غموض الشخصية الإنسانية وتناقضاتها. أحاول البحثَ عن إجابات لأسئلتي الوجودية، واكتشافَ حلول لمشكلاتي الفكرية، عسى أن ينكشف لي النورُ الذي يضيء خارطةَ النجاة. يهمني أن أكتشف نفسي قبل أن أكتشف العالم، وأغيِّر نفسي قبل أن أغيّر العالم. أحاول عندما أكتب أن أعبّر عن ذاتي كما هي، أسعى بحماسٍ لأن يكون ما أكتبه وأتحدث به خلاصةَ تأملاتٍ عقلية، وتعبيرًا عن خبرةٍ روحية وحياةٍ أخلاقية. أحاول كتابةَ اكتشافاتي لذاتي، والاعترافَ بثغراتي، ومواطنِ هشاشتي، والتمرينَ على شجاعة الإعلان عن أخطائي، لعل الإعلانَ عنها يشفيني من مواجع الندم ويحرّرني من تكرارها. يهمني البوحُ بشيءٍ من جروحي الغاطسة عساني أطفئ جمرتَها بداخلي.

مَن يقرأ كتاباتي بوسعه أن يرحل معي ويطلع على شيءٍ من محطات حياتي. تدور كتاباتي في آفاق سيرتي؛ أحاول كتابتها بلغة صافية، وأبوح فيها بما يمكنني الإعلانُ عنه، وكأنها لوحةٌ نسجتْها أقداري وآلامي

ومواجع حياتي. أحاول التحدثَ فيها عن شيءٍ من ضعفي قبل قوتي، وهشاشتي قبل صلابتي، وجهلي قبل علمي، وعواطفي قبل عقلي، وأسئلتي قبل أجوبتي. أحاول الإعلانَ فيها عن شيءٍ من إخفاقاتي قبل نجاحاتي، وقلقي قبل سكينتي. ومن ذلك، فإني بنحو ما أكتب لنفسي قبل غيري، وأحاول أن أكونَ منقِّبًا، أكتب لأغوص في عوالم الذات. الكتابة الجيدة تتكشف فيها سيرةُ الذات وأطوارُها الوجودية، كلُّ كتابة تعبّر عن تجربةٍ معيشةٍ للكاتب تكون شائقةً بمقدار ما هي شقيّة، مريرةً بمقدار ما هي عذبة.كتاباتي سيرةٌ ذاتية لما تراكم من تجارب وجروح مريرة وخبرات مختلفة عشتُها عبر محطات حياتي المتعدّدة والمتنوعة.

يخطئ من يتوهم أن كاتبَ هذا النصّ يدلي بتوصيات جاهزة لتدريب الكتّاب وتوجيه القرّاء. لا أقدّم أية توصيات، لستُ وصيًا على إرادة أحد، يهمني تحريرُ العقل من الوصايات مهما كان القناعُ الذي تتلبس به، ومهما اتخذت لها من تسميات. الكتابةُ الجادة تتطلب ذاتًا صبورا، وعقلًا يقظًا، وإرادة شجاعة، وضميرًا أخلاقيًا حيًّا، وتراكمًا لقراءات نوعية، ومِرَانًا متواصلا.

- 11 -

لا قيمة لكتابة تتنكر للاعتراف

إذعاناً لحقيقة أن القارئ يبحثُ عن ذاته فيما يقرأ، فإن أعذب كتابةٍ هي ما يرى فيها القارئُ محطاتِ حياته، وتتكشف فيها ملامحُ صورته، ويتجلى فيها شيءٌ من الأعماق المختبئة في نفسه، وتفضح العقدَ الكامنة بداخله، وتعلن أسئلتَه ومعتقداته الحذرة والخائفة. القارئ يفتش في الكتابة عن شخصيةِ الكاتب، وأحوالِه وانفعالاته وحساسياته وهشاشته وضعفه البشري، ويدقّق في كلِّ ما يسعى الكاتبُ لإخفائه. يريد القارئ تمزيقَ ما يحجبُ شخصيةَ الكاتب من أقنعة، وما يتوارى خلفه وجهُه. لا يبحث القارئ عن المكشوف الذي يعرفه الآخرون عن الكاتب. أصدقُ سيرة ذاتية قرأتُها وتعلّمت منها ما كانت مرآةً لذات كاتبها، وما اعترفَ كاتبُها فيها بطبيعته بوصفه بشرًا لا ملاكًا، وتحدث عن شيء من ثغرات شخصيته، وأعلن عن شيء من وهنه وعجزه، وندمه على أخطاء بعض أفعاله وآرائه، بموازاةِ حديثه عن مزاياهُ ومنجزاته ومكاسبه ومواهبه.

لا نسمع من البشر إلا كلماتهم، ولا نرى إلا وجوهَهم، ولا نتحسّس إلا ما هو مُعلَن من مواقفهم وسلوكهم. يستعمل كثيرٌ من الناس مختلفَ الأقنعة لتغطية وجوههم، وتمويه كلماتهم، والمراوغة في مواقفهم. نقع

في الذهول أحيانًا حين ينكشف لنا شيءٌ مختزَنٌ في أعماق مَن نعرفه منذ سنوات وتربطنا به صداقةٌ قديمة، مما تفضحه المواقفُ الصادمة عند الغضب والانفعال الشديد، ومواقفُ الكيد والغدر والخيانة. مَن أراد تطهيرَ ذاته من أكثر العقد المترسبة في باطنها ينبغي أن يكون شجاعًا في الإعلان عن أخطائه وعثراته وإخفاقات مسيرة حياته، كما يقول علمُ النفس الحديث.

لا تكون الكتابةُ صادقةً إلا بالتحرّر من الوصايات، ومن أشدِّ الوصايات ما تلزم به جماعةٌ أفرادَها بالرضوخ لمعتقداتها وقناعاتها وشعاراتها، فتقحم أقلامَهم في صراعاتها ومعاركها. بعضُ الكتّاب يتنقل في محطات أيديولوجية واعتقادية وسياسية متنوعة، ويواصل الكتابةَ كلَّ حياته، من دون أن نعثرَ على جملةٍ واحدة تشير إلى أنه أخطأ يومًا ما في اعتناق واحدةٍ من أيديولوجياته، أو أخطأ في عناده وتشبّثه بآراء ومواقف قادته وغيرَه لعواقب مريرة، أو أنه كان لا يعلم شيئًا من قراراته، أو كان جاهلًا ببعض أفعاله وسلوكه. ترى بعضُهم يقع في كلِّ محطةٍ تحت وصاية جماعة أيديولوجية، لتصبح وجهتُها هي البوصلة المتحكّمة بمواقفه وغايات كتاباته. أتحدث عن أولئك الذين يهرولون دائمًا نحو مَن يضمن لهم المزيدَ من المكاسب العاجلة، ومَن يعمل على تسويق كتاباتهم جماهيريًا، ويوفر لهم غطاءً وسلطةً تحميهم من أية ضريبة للكتابة. لا أتحدث عن أولئك الأحرار الذين تنشأ تحولاتُهم عن ذكاء، وضمير أخلاقي يقظ، ورؤية واعية، واستبصارات عميقة، وقدرة على تمحيص تجارب الحياة المتنوعة وغربلتها، وازدراء ما يتكشّف فيها من أكاذيب وأوهام زائفة.

لا يمكن الوثوقُ بكتابةٍ يعجز فيها المرء عن الاعتراف بأخطائه، ومراجعة قناعاته، ونقد أفكاره. بعض الأشخاص تراه يقفز من أيديولوجيا إلى أخرى مضادة لها، من دون أن تقرأ له عبارةً ولو واحدة يعترف فيها بخطأ في أفكاره أو مواقفه أو سلوكه،كأنه لا يدري أن كلَّ مَن يفكر يخطئ. يمكن تعريفُ الإنسان بأنه كائنٌ يخطئ، أنا شخصيًا أخطأتُ كثيرًا في حياتي، وتمكنتُ بصعوبة من الخلاص من تلك الأخطاء، وإن كان بعضُ ما ارتكبته من أخطاء مازال ألمه يتفجر بداخلي أحيانًا، خاصة ما ورّطني فيه جهلي المركّب. كلُّ جهلٍ مركب أشدُّ وطأةً وعنادًا من الجهل البسيط. مازلتُ أرتكبُ أخطاء حتى اليوم، لم أستطع التغلبَ عليها إلا بتدريب نفسي بصرامة على الاعترافِ بها وعدمِ الإصرار عليها، واعتمادِ أساليب علاجية علمية في الخلاص منها إن تكرّرت. الأخطاءُ إذا اعترفنا بها وعالجناها تتحول إلى دواء يشفينا، وإذا تنكّرنا لها وتواصل إصرارُنا عليها تتحول إلى أمراض أخلاقية مزمنة. كلُّ خطأٍ مزمنٍ نتغلبُ عليه يصيرُ منصةً للارتقاء في سُلّمِ التكامل.

مَن لا يعترف بأخطائه لا يتعلّم، ولا يتغير. من دون خطأ لا يحدث تكامل، الخطأ ضرورةٌ لاستمرار الحياة وإثرائها وتجددها. افتراض حياة إنسانية بلا أخطاء يعني تحول الإنسان إلى كائن آلي، يصير كلُّ شيء في حياته مكررًا مملًا يثير السأم، لا معنى لحياة كلّ شيء فيها صحيح،كلّ شيء فيها واضح،كلّ شيء فيها مرسوم سلفًا. الخطأ ضرورةٌ تفرضها طبيعةُ الإنسان بوصفه إنسانًا، لا يتحرّرُ الإنسانُ من الخطأ غالبًا إلا بعد أن يقعَ فيه، ويعترف بكونه خطأ،

ويمتلك إرادةً جريئة تعمل بإصرار على الخلاص منه. يتخفف الإنسان بالاعتراف بالخطأ داخليًا أولًا، ويتحرّرُ من توهم الكمال والغطرسة والنرجسية الحادة ثانيًا، وثالثًا يدعوه الاعترافُ بالخطأ لتفهم ما يوقع غيره بالخطأ، ويعتذر له. لو اعترفنا بأخطائنا لتخلصت عوائلُنا من كثير مما يهدّدُ كيانها، ويعصفُ بأمنها الداخلي. اعترافُ الزوج والزوجة بالخطأ يحمي العائلةَ من التصدع والانهيار، ويرسخُ لدى الأبناء القدرة على مراجعة أخطائهم والاعتذار عنها، ويحفّزهم على تصويب مواقفهم وسلوكهم على الدوام. لو اعترفنا بأخطائنا واعتذرنا لتخلص مجتمعُنا من مشكلات اجتماعية مؤلمة ينتجها العناد والعنجهية. مَن يمتلك شجاعةَ الاعتراف بالخطأ يمتلك القدرةَ على تغيير ذاته، ويكون أقدر على التأثير بغيره. الخوفُ من الاعتراف بالخطأ خوفٌ من التغيير.

تحدثُ عند من يمتلك عقلاً نقدياً تحولاتٌ في القناعات الفكرية والأيديولوجية والسياسية، غير أن الإعلان عنها يتطلب ضميرًا أخلاقيًا حيًّا، وإرادةً جريئة. يخاف أكثرُ الكتّاب الذين يعيشون في مجتمعات تقليدية مغلقة من البوح والاعتراف، فيكررون عندما يكتبون ما يقوله غيرُهم بألفاظ أخرى. ويعمد بعضُهم إلى عبارات زئبقية مموّهة، يريد أن تتنوع المواقفُ منها، تبعا لتعدّد تأويلات القراء وخلفياتهم.

طالما كانت الكتابةُ حجاباً يخفي عاهات بعض الكتّاب الأخلاقية وعقدَهم النفسية. التجربةُ وحدها كفيلةٌ بتمحيصِ البشر، وفضحِ ما يحجبونه من عاهات بمهاراتهم الحاذقة. الكاتبُ الأمين لغتُه ليست

مقعرة، بصمتُه واضحة في تعبيره وتفكيره. الكاتبُ الذي يعاند لغتَه، ويتمرّد على طريقة تفكيره وتعبيره ليس أمينًا.كلُّ كاتب يستنسخ توقيعَ غيره ويتلبّس قناعات تكذِّب قناعاتِه ليس وفيًا لمهنته. الكتابةُ هي الهويةُ المعرفية والأخلاقية للكاتب،كل كُتابةٍ تخون لغةَ كاتبها وتغرق بلغةٍ مستأجرة كتابةٌ تخون قارئها وكاتبها. الكاتب الصادق مَن ترتسم سيرتُه الفكرية والأخلاقية في كتاباته، مَنْ تستمع بوضوح لإيقاع صوته، وترى بصمتَه الخاصة في الكتابة.

لا يحمي الكتابةَ والكاتبَ والقراء إلا يقظةُ الضمير الأخلاقي، الكاتبُ تحت الطلب لن يكون كاتبًا حقيقيًا. تسليعُ الكتابة يفتك بالقارئ، يخونُ الكاتبُ ضميرَه الأخلاقي عندما يزوّر قناعاته، ويظلّ قلمُه معروضًا للبيع لمن يدفع أكثر. أسوأ كاتبٍ مَن يعمل كما يعمل البائعُ المتجول، البائع هدفُه بيعُ بضاعته والظفرُ بربحٍ عاجل من أيّ مصدرٍ كان. الكتابةُ الحقيقية هي تلك التي تثير نقاشًا جديًا (مع/ ضد). يُكلّفُ الكاتبَ الإصرارُ على هذا اللون من الكتابة الكثيرَ من الإزعاجات، وهو موقفٌ يتكرّر مع كلِّ تفكيرٍ حر. باهظةٌ في مجتمعنا ضريبةُ كلّ تفكيرٍ ينشد الحرية، ويشتغل خارج إطار الأيديولوجيات والمفاهيم والقوالب المتداولة الجاهزة. لا جديدَ في كتابة لا تخرج على إجاباتٍ مكررّة وقناعاتٍ جاهزة. لا يشترط في الكتابة أن تنال إعجابَ الكلِّ وإجماعَهم، الكتابةُ الحقيقية كتابةٌ خلافية، تثيرُ من الأسئلة أكثر مما تقدّم من الأجوبة، وتتمردُ على الكلمات والاجابات المملة. قوة الكتابة في اختلافِها، وفاعليتِها في إيقاظ الوعي، وتكريسِ الروح، وإيقاظِ الضمير الأخلاقي، وتهذيبِ الذائقة الفنية.

ليست هناك كتابةً جيدة لا تصطبغ بشيء من ذات الكاتب. الكتابةُ الجيدةُ يتكشفُ فيها شيءٌ من أعماق الكاتب، وتنهلُ من تجاربه الشخصية.كلُّ كتابة تعبر عن تجربة معاشة للكاتب ثريةٌ ومؤثرةٌ جدًا. الكتابةُ مفتاحُ قراءة شخصية الكاتب، كان أرسطو يقول: «تكلم لأراك»، ويمكننا أن نضيف لهذا الكلام: «اكتب لأراك». هناك صلةٌ وجودية بين الأثر وصاحب الأثر، الإبداع أعمق أثر تتجلّى فيه كينونةُ الإنسان الوجودية، الكتابة الجادة من أوضح أشكال الإبداع، وهكذا الشعرُ والرسمُ والنحتُ والموسيقى وأنواعُ الفنون السمعية والبصرية، يمكننا قراءةُ شخصية الكاتب واكتشافُ ما يرمي إليه عبر نصوصه، مثلما يمكننا قراءةُ شخصية المبدع عبر إبداعه.

وأنا أطالع بعضَ الكتابات المبتكرة أتذكر تأملاتِ أبو حيان التوحيدي العميقة واستبصاراته الحاذقة، وشجاعة اعترافاته، وجرأته المدهشة في التعبير عن مواطن الضعف والهشاشة في ذاته. مؤلفاتُ التوحيدي مرآةٌ انعكست فيها ثقافةُ عصره وآدابُه وفنونُه. في كتبٍ نادرة تلتقي لوحاتٌ مرسومةٌ بلغةٍ آسرة، ألوانُها: الشذرات، والسيرة الذاتية، والقصة القصيرة، والتحليل النفسي، والنقد الثقافي، والنقد الأدبي، والنقد الجمالي، والنقد السياسي. كأن القارئ يتنقل في حديقة صمّمتها ذائقةُ مهندسٍ زراعي متخصّصٍ بنباتات الزينة والأزهار.

بعضُ الكتب منجم معلومات،كأنها كنزٌ يودِع فيه الكاتبُ ما يمتلكه من لؤلؤ وأحجار نادرة. تبهجني مطالعتُها في مواطن، وتحزنني في مواطن أخرى، وتضيف لي معلوماتٍ لا أعرفها من قبل. مَن يكتب كتابًا

كهذا ترى ثقافتَه موسوعية ثرية، رؤيتَه للعالم واسعةً بسعة ثقافته وتنوعها. تتناغم في كلماته ذائقةُ الفنان، وموهبةُ المبدع، ورؤية الشاعر، وبصيرةُ العارف، وتأملاتُ المكتشِف الذي حاك خرائطَ الحياة، وعاش آلامَها ومواجعَها ومراراتها، ومواطنَ اكتئابها وضجرها. يفرض عليك الكاتبُ أن تنخرط في شيءٍ من أقداره الشقية والسعيدة. القارئ المتمرّس عندما يقرأ هذه الكتبَ تفرض عليه أن يعيش معها حتى آخر صفحة، وهو يشعر كأنه في سياحةٍ تأخذه لصور متنوعة في الحياة، يكتئب بصفحة ويبتهج بصفحة أخرى، وربما يضحك بصفحات تالية. هذا الضرب من الكتابة نادر.

- 12 -

أن نكتب يعني أن نختلف

لم أتدرب على أحدٍ لتعلّم صنعة الكتابة، ولا أتقن تدريبَ أحد. حين قرأتُ تجاربَ بعض المشاهير، جرّبت تقليدَهم ففشلت، وعجزتُ أن أكون نسخةً من أحدهم، لم أجد ذاتي في طريقة أيٍّ منهم، فحاولتُ أن أشتقَّ لغتي وأسلوبي، وأشقّ إليهما طريقي. رأيتُ ذاتي تنفر من تكرار غيري، ولا تستطيع أن تكون إلا هي. حاولتُ في هذا الكتاب التحدّثَ عن سيرتي ككاتب، لا سيرة أيّ شخص مهما كان مقامُه. أذكر شيئًا عن خبرتي ككاتب وقارئ، بغضِّ النظر عن كيف يقرأ ويكتب الآخرون، فلا يمكنني إلا توخي الصدق في كلِّ ما أكتب. حقُّ الاختلاف يعكس تلقائيًا الطبيعةَ الإنسانية، وهو ضرورةٌ في التربية والتعليم والثقافة والإعلام والسياسة، وكلّ ما يريد الإنسانُ أن يحقّقَ ذاتَه به بوصفه إنسانًا.

أتذكر بهذه المناسبة موقفًا حدث معي، عندما كنتُ حاضرًا أحد المؤتمرات ببغداد قبل نحو عشر سنوات، أثناء الاستراحة جاء شاب يتدفق حماسة، عرّف نفَسه بأنه في طالب في مرحلة دكتوراه العلوم السياسية، بدأ حديثَه بسؤالٍ إنكاري: لماذا لا تكتب للجماهير، لماذا لا تخطب في المساجد والحسينيات كما كان يفعل علي شريعتي. أجبتُه: أنا إنسان آخر، أعبّر عن ذاتي كما هي، وليس عن أي كاتب غيري أيًا كان

مقامُه وتفكيره وتأثيره. أحترم قناعاتِ ونضالَ شريعتي، هو يختلف عني وأختلف عنه، لا أقلّده ولا أقلّد أحدًا غيرَه، لا أستطيع أن أكون صورةً مزورة لشريعتي، عجزتُ عن محاكاة أيّ إنسان آخر مهما كان عظيمًا. ولن أحقّق ذاتي إلا حين أعبّر عن فهمي ورؤيتي وقناعاتي. شريعتي أيديولوجي كان يرى نفسَه كأنه مبعوثٌ من السماء، أفتقر لحماسه، اكتويتُ بشعلة هذا الضرب من الحماس العاصف بدايةَ شبابي في سبعينيات القرن الماضي، ولكن بعد سنوات قليلة انطفأتْ شعلتُه في داخلي إلى الأبد، عندما نضج عقلي، واتسع أفقُ فهمي لذاتي والإنسان والواقع الذي أعيش فيه، وأدركتُ أن للحقيقة وجوهًا متعددة وطرقًا متنوعة، طالما أخطأ الإنسانُ في اكتشاف أحد وجوهها، وسلك طريقًا لا يوصله إليها. تضيّع الإنسانَ متاهاتُ العقل الوثوقي واليقين المسبق، وطالما كذّبت الأيامُ أحلامَ هذا العقل وأوهامَه.

الأيديولوجيا غير الدين، مصطلحُ الأيديولوجيا كان يعني في أول ظهوره واستعماله علمَ الأفكار، ثم استعمل معناه لاحقًا في النسق الفكري المغلق، الذي يرفض كلَّ أشكال الاختلاف في التفكير والتعبير، ويعطل العقلانيةَ النقدية والمعرفةَ العلمية. ليس كلُّ مَنْ يعتقد بدين إنسانًا أيديولوجياً، أن يكون الإنسانُ بوذيًّا أو هندوسيًّا أو مسيحيًّا أو مسلمًا في دينه لا يعني أنه أيديولوجي. وفقًا للتعريف الذي اقترحتُه «للدينَ بوصفه حياةً في أُفق المعنى، تفرضُه حاجةُ الإنسان لإنتاجِ معنىً روحي وأخلاقي وجمالي لحياتِه الفردية والمجتمعية» يكون الدينُ وفقًا لهذا الفهم غير الأيديولوجيا. يمكن تحويل الدين أو أي معتقد أو أي فكرة إلى أيديولوجيا. أعني بالأيديولوجيا نظامًا لانتاج المعنى

السياسي، يحوكُ نسيجَ سلطة متشعبة، وفقًا لصورة متخيلة حاكتها أحلامٌ مسكونة بعالم طوباوي. الأيديولوجيا تزييفٌ للحقيقة، وطمسٌ لمعناها عبر حجب الواقع، واحتكارٌ لنظام إنتاج المعنى، وتعطيلٌ للحق في الاختلاف. لا يعني ذلك رفض تغيير الواقع، فتفسيرُ ونقد الواقع يسبقُ تغييره. عندما لا نفهمُ شيئًا نعجزُ عن تغييره،كلُّ عملية تغيير تسبقها عمليةُ تفسير ونقد عقلاني.

كثيرًا ما تصلني رغباتٌ وطلباتٌ من شباب أعتزُّ بهم، يفكرون بتوجيه الكتابات باتجاه احتياجاتهم الأيديولوجية، وما يرون أن الواقعَ الذي نعيش فيه يتطلبها. أحيانًا يظلّ بعضُهم يلحّ، وهو يشدّد على ضرورة أن أكتب ما تنشده أيديولوجيا يعتنقها وأجيب عن أسئلتها. أعرف أن هذه الطلبات تعكس احتفاءَ وثقة هؤلاء القراء الكرام بما أكتب، وتعلن عن شهادة اعتراف أعتزّ بها. يتكرّر هذا السؤالُ الإنكاري من هؤلاء القراء: لماذا لا تقومون بدوركم أيّها الكتّاب، كأنِ هؤلاء يفترضون الكاتبَ سوبرمانًا أو مقاتلًا أو فدائيًا. الكاتب خارج الأيديولوجيا غير مستعدّ أن يموت من أجل ما يكتبه، يعرف أن كتابتَه وحتى مقتَله لن يغيّرا المجتمع، ويعرف مسبقًا أن بعض قناعاته الأساسية قد تتغير غدًا بعد أن يكتشف خطأها. الأيديولوجيا تستعبد الإنسان، تغيّبه عن ذاته، تنسيه أن تغييرَ العالَم يبدأ بتفسيره، وأن تغييرَ العالَم ينطلق من قدرة الإنسان على تغيير ذاته أولًا. يعجز الإنسانُ عن تغيير عالَم لا يفهمه، مثلما يعجز إن كان لا يقدر على تغيير ذاته. الكاتب إنسانٌ يحتاج أن يشعرَ بالأمان، ويوفّر احتياجاته الأساسية، ويعيش كما يعيش كلُّ الناس. الأيديولوجيا تفسد الكتابة؛ يكرّر بعضُهم بطريقة مملّة عبارات للمفكر اليساري الايطالي

غرامشي وكأنها نصوص مقدّسة، بوصفه مثالًا للمناضل الذي يجب أن يتخذه نموذجًا كلُّ مَن يكتب. الطريف أن هؤلاء يتحدثون عن حقِّ الاختلاف، وضرورةِ تعبير كلّ كاتب عن تفكيره هو، في الوقت الذي يريدون منه أن يكون صورةً مشوّهة عن غيره، من دون وعي لموطن غرامشي وموهبته ونمط شخصيته وحساسياته وعواطفه وانفعالاته، والزمان والمجتمع والواقع الذي كان يعيشه، ونوع أيديولوجيته، وكيفية نضاله واضطهاده ومعاناته وعذاباته في السجن.

اعتاد هؤلاء الشباب على تلبية بعض الكتّاب لطلباتهم المتنوعة والاستجابة لما يريدون. أكثر مَن يستجيب لهذه الطلبات ممن يكتب بكلّ شيء من دون أن يقرأ أيَّ شيء قبل أن يكتب، ويجيب عن كلِّ سؤال من دون بحث وتقصٍّ، ويتحدث بكلّ تخصص، وإن كان خارج تخصصه. بعضُهم يكتب وينشر في مختلف الحقول بلا تكوينٍ معرفي عميق، ولا تكوين أكاديمي متخصص، ويفتقر إلى اللغة المناسبة لموضوع الكتابة.

كذلك تردني مناشداتٌ ملحة من قراء ومعجبين تدعوني لكتابةِ الموضوع كذا، والعملِ على تأليف كذا، وحاجة المجتمع لمطالعة كذا. احترم كلَّ الرغبات والطلبات، أعترف أن المشكلةَ تخصّني، أحذر الكتابةَ جدًا، أعجز عن الكتابة بكلّ شيء، أنأى بنفسي عن كلِّ شيء لا أعرفه، أدرك حدودَ علمي الضئيل جدًا مقارنةً بما أجهله، كلّما تعرّفتُ على محدودية معرفتي أذهلني جهلي. لا أمتلكُ تهورَ الكتابة أو التحدّث بغير تخصصي وخارج مطالعاتي، أشعر بضجر لحظة تفرض عليَّ مناسباتٌ اجتماعية الاستماعَ لمتحدث يتكلمُ خارجَ تخصصه،

أراه لفرط جهله يتسابقُ مع أهل التخصص ويُسكِت مَن يبدي رأيًا، وهو يتكلم بحماس في موضوعات لا يعرف عنها شيئًا.

أحاول أن أكتب ما يعتمل بداخلي، أعجز عن الكتابة استجابةً لطلبات لا أجد حافزًا بداخلي لكتابتها، وإن كانت في إطار تخصصي وكتاباتي في الشأن الديني والتراثي. فشلتُ عدة مرات بالاستجابة لطلبات عزيزة لإجراء حوارات شفاهية أو مدونة مع محاورين أذكياء أحترم تخصصَهم وفهمَهم وثقافتَهم، أحيانًا أتهرب بالتأجيل لأشهر، وأخيرًا أعجز عن إكراه نفسي على ذلك. مشكلة هذه المناشدات أن أصحابَها ينسون أني كغيري من البشر كائنٌ غارق بسجون ذاتي وهشاشتها وأحزانها ومخاوفها وعجزها ومواجعها، الكتابة عندي لا تولد بقرار مفروض، لا أقدر على ممارستها بشكلٍ يومي رتيب. لكلٍّ منا آلامُه ومزعجاته ومثيراته وحساسياته ومشاعره الخاصة،كتاباتاتي وحياتي تتذبذب كما يتذبذب المنحنى النفسي لذاتي صعوداً وهبوطاً. ذاتي كإنسان لا تخلو من حساسياتها وقلقها وتناقضاتها ومخاوفها. يقول كارل غوستاف يونغ: «الإنسان الذي تخلّص من مخاوفه هو إنسان على حافة الهاوية»[1].

يتعاطى الآخرون معك أحيانًا وكأنك ماكنةٌ تشتغل بانتظام رتيب، أو قالبٌ صناعي ينتج نسخًا متماثلة، وهم لا يعلمون أنك تعجز أحياناً عن تنفيذ قراراتك والتحكم بنفسك، عندما تخذلك ذاتُك لأسباب خفية أنت تجهلها عن نفسك. لا تخلو شخصيةُ الإنسان من تناقضات حادّة، أحيانًا يتعذّر عليه التحكم بها، لذلك لا يستجيب طوعًا إلا لما يتسق

(1) هكذا تكلم كارل غوستاف يونغ، ترجمها وعلق على نصوصها: أحمد الزناتي، 162، 2022، الكويت. عن: (كارل غ. يونغ، الرسائل، الجزء الأول، صفحة 399).

مع طبيعته ومزاجه ويتناغم وأحلامه ورغباته وقناعاته. الكتابةُ ليست عمليةً آلية، فإن أراد الكاتبُ أن يكون مبدعًا ينبغي ألا يشاكس طبيعته، وأن يكون مختلفًا يعبر عن ذاته كما هي. الحقُّ في الاختلاف بالكتابة شرطُ الإبداع، الإنسانُ إن كان مبدعًا في حالة هبوطٍ وصعود، أو «قبضٍ وبسط» كما يصطلح العرفاء، شخصيتُه في حالة تذبذب، لا يستقرّ على برنامج مكرّر ومتواصل، يحتاج باستمرار أن يكسر الرتابة، ويتحرّر من كوابيس المواقيتِ المُعدَّة سلفًا، والخططِ المفروضة قسرًا.

أن نكتبَ يعني أن نختلف، المختلفُ غيرُ مألوف وغيرُ معروف، لذلك يثيرُ الناسَ وربما يتسببُ في خوفهم واستفزازهم. أكثرُ الناسِ يثيرهم الاختلاف، الاختلافُ أحيانًا يشعرهم بتغيير أحوالهم، وربما بتهديد استقرارهم، وسلب الأمان من حياتهم، فيحتاجون إلى الشعور بأن يلبثَ كلُّ ما كان على ما كان.

- 13 -

الترجمة بوصفها ضربًا من الكتابة

كثيرًا ما نقرأ ترجماتٍ ملتبسةً مشوشة، تُغرِق القارئ بفائضٍ لفظي من دون أن تفيد معنى واضحًا. الترجمات الحرفية أسوأ الترجمات، أحيانًا نقرأ نصًا منقولًا من لغة أخرى من دون أن يلوح لنا أيُّ ضوء في كلماته، لا نرى إلا كلمات مظلمة لا نتحسّس فيها معنى مفيدًا. أن تتملك معاني الكلمات شيء، وأن تنقلها للغتك كودائع مغترِبة عنها وعن فضائها الدلالي ورؤيتها للعالم شيء آخر. تملّك المعنى يعني توطينَه في فضاء لا يغترب فيه، وتحويلَه إلى عنصرٍ حيّ في نسيج ثقافة موازية، بعد اكتشافِ ما تنطق فيه اللغتان، والإصغاءِ للصوت العميق فيهما معًا. التملّك غير تلقي الكلمات كما هي بمعناها الحرفي، عدم تملّكها يعني استنباتها حرفيًا في فضاءٍ دلالي لا يمدّها بشيء من نهر الحياة. تملّك معاني الكلمات يعني أن تتكلم كلُّ واحدة من اللغتين إلى الأخرى بما هو خارج دلالة كلماتهما الحرفية، ويتحقّق ذلك باكتشاف منطق الفهم المشترّك للغتين معًا. المترجم المحترف حين يعمل على تملّك معاني الكلمات يتعاطى مع اللغة وكأنها مادةٌ خام يغرسها في فضاءٍ دلالي لا تجد ذاتَها مغترِبة فيه، ولا تتنكر له اللغةُ المنقولة إليها. تصير اللغة المترجَم منها عنصرًا فاعلًا في اللغة

المُترجَم إليها، تغذّي فضاءها الدلالي وتتغذى منه. عندما تهاجر الكلمة من لغتها الأم إلى لغة أخرى تلتقي بمعناها العميق، الذي تظلّ تبحث عنه في الطبقات القصية للغة الراحلة إليها، وتظلّ تسعى لذلك في أية لغة تقيم فيها مجدّدًا. الترجمة كما تعمل على تجديدِ حياة اللغة وإثراءِ معجمها بتوالد ونحتِ كلمات ومصطلحات جديدة، وإثراءِ لغة المترجم واغناء رصيد معجمه، واتساعِ فضاء وعيه اللغوي، تعمل أيضًا على تجديدِ حياة اللغة والأدب والثقافة وتغذيتِها بما يتيح لها أن تنفتح على آفاق رحبة للمعنى. المترجم الحاذق راءٍ تمكّنه استبصاراتُه من أن ينصت لصوتٍ لا يسمعه القارئُ المتعجّل للنصوص، يقظة الرائي تدلّه على الصوت الواحد في لغات متعدّدة. فرادة الرائي بقدرته على التذوق كمتصوف حالة شهود.

الترجمةُ عمليةُ أخذٍ وعطاء متبادَل، اللغةُ كائنٌ حيّ يتجدّدُ بالأخذ كما يتجدّدُ بالعطاء. أن تترجمَ من لغةٍ يعني ألا يقتصر فعلُ الترجمة على توطين المعاني في لغتك بل يتجاوزُ ذلك إلى إثراءِ المعجم الاصطلاحي للغة. المترجمُ المتمرّس ينحتُ مصطلحاتٍ مشتقة من رصيد معجم لغته، يعزّز رصيدَها ويجدّده، على ألا يتنكر له مجالُها التداولي. اللغةُ المترجَم منها تباشر فعلَ إيقاظ اللغة المترجَم إليها وبعثَ الحياة فيها من جديد.

تنبه الجاحظ في وقت مبكر إلى عدّة المترجم وما ينبغي أن يتسلح به من أدوات، وهو يعيد إنتاجَ المعاني بلغته، وكيف يجعل المترجم لغةً تتحدث إلى لغةٍ أخرى وتتفاعل معها بالأخذ والعطاء، بقوله: «ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس

المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية، ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات. وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه»[1].

الترجمة مرآةُ ذات المترجم وثقافتُه، ليست هناك ترجمةٌ مبرأة من بصمة الذات.كلُّ ترجمة محترفة قراءة للنصّ، ترجمات النصّ هي محصلة قراءات المترجمين له، في كلّ ترجمة صوتٌ مميز لا يكرّر غيرَه، مثلما ننصت لصوتٍ موحد يبوح بما تستبطنه الكلماتُ، وما هو أقصى مما تكشّف للوهلة الأولى من دلالاتها. الترجمة ضربٌ من التأليف يتطلب استعداداتٍ تناظر ما تتطلبه عمليةُ كتابة النصوص الجادة، الترجمة المحترفة تغوص لتكتشف القاعَ التي تقف عليها مداليلُ الكلمات. الترجمة نهر حيوي لتغذية الثقافات وتلاقحها وتوالدها واتساع آفاق رؤيتها للعالم، وإثراء منابع العيش المشترَك فيها، وانفتاح مفاهيمها وقيمها الكلية بعضها على بعض، وتواصلها من أجل بناء فضاءٍ يستوعبها في إطار اختلافها وتنوعها. الترجمة أعمق روافد

(1) الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، ج1: ص 75 ـ 79، 1955، دار الجيل.

إيقاظ المشتركات الكونية بين الأفراد والمجتمعات، وأجملَ مرآة تتجلى فيها القيمُ الكلية في الثقافات والحضارات والأديان.

الترجمةُ أشدُّ وطأةً من التأليف. أنا مؤلفٌ ومترجِم، على الرغم من أن الكتابةَ تتعبني، لكن الترجمةَ تنهكني بل كانت تعذّبني أحيانًا، لذلك هجرتها منذ سنين طويلة. الترجمةُ ضربٌ من امتحان الضمير الأخلاقي للمترجم، إن كان كلامُ المؤلف ليس منطقيًا، أو لا يتفق مع معتقد المترجم وثقافته، يضع المترجمَ في مواجهة الكاتب، وأمام امتحان ضميره الأخلاقي.كنت أتحيّر مما أراه خطأ لدى الكاتب، وأتردّد في ترجمةِ مفاهيمَ لا أرى صوابَها، وعباراتٍ لا اقتنع بمضمونها، أنزعج وأتردّد في نقلها للقارئ العربي، وأخيرًا أترجمها مهما كانت، لشعوري بأن استبعادَها خيانةٌ لمؤلف أنا مُستأمَن على نصوصه عندما تطوعت بنقلها إلى العربية، وهي خيانةٌ لقارئٍ يتطلع لقراءة هذه الترجمة بلا تصرف بحذف واضافة أي شيء من أصلها. يكتب أمبرتو إيكو: «وبالمناسبة أذكر أن رواية اسم الوردة عندما تُرْجمت في بعض بلدان أوروبا الشرقية (قبل ترجمة هيلينا بكثير) اتصل بي أكثر من مترجم قائلًا: إنه من الصعب جدًا أن نذكر في بداية الرواية الغزوَ الروسي لتشكسلوفاكيا، فهذه الإحالة قد تجلب لنا بعض المتاعب. وقلت لهم إنني لا أوافق أبدًا على أي تغيير يلحق النص، وإذا كانت هناك رقابة فالمسؤولية تعود للناشر»[1].

(1) إيكو، أمبرتو، اعترافات روائي ناشئ، ص67.

- 14 -

غواية الكتابة

غوايةُ الكتابة واحدةٌ من نتائج غير محسوبة لعصر الإنترنت وتكنولوجيا المعلومات. صار الهوسُ بالكتابة والنشر، بلا موهبة، ولا قراءة مكثفة، ولا تفكير صبور،كهوس تكديس الشهادات العليا بلا تكوينٍ علمي. إذ يورث الحضورُ في تطبيقات وسائل التواصل إدمانَ الشهرة، وينهل هذا الإدمان أحياناً ما نهله الوهم من إدمان الهيروئين أوهامًا وتهويمًا في الفراغ، مثلما أفرغ قناعُ السلطة المفاجئة على أشخاص إدمانًا من نوعٍ آخر، فيسعى مَن عمل سنوات طويلة من حياته مسؤولًا في سلطةٍ، أو تنظيمٍ سياسي، بدولة أو مدينة صغيرة أو كبيرة، إلى حضور آخر في ميدانِ الأدب والثقافة والفن في الهزيع الأخير من عمره، يجهل أو يتجاهل أن الإنتاج الفكري والأدبي والفني متعذر تماماً بلا تكوينٍ مستمر وتفكيرٍ متأمل وتراكمٍ طويل لقراءات تتواصل العمرَ كلِّه. وإن أثبتت فوضى لا صدفة فيها إمكان أن يجد المرء نفسه في مواقع متقدمة من العمل السياسي، بلا تأهيلٍ سياسي واجتماعي وثقافي وبلا تجارب وخبرات، فيصل إلى مراكز متقدّمة بسرعة خاطفة؛ لمجرد الانخراط بجماعات سباق الامتيازات. تبقى مثل هذه الخروقات عصيّةً ولا

تجد لها موطئ قدم في ضفاف الأدب والثقافة. التكوين الفكري، دائماً، يفرض سياقاتٍ فردية، تحتاج بدورها إلى قراءاتٍ تتسع لعمر الإنسان كلِّه، وتفكيرٍ مزمن ومران يوميّ على الكتابة، مضافاً إلى سياحةٍ متواصلة في الثقافات والآداب والفنون والمعارف والعلوم، وشغفٍ بالكتاب وولعٍ لا ينطفئ بالمطالعة. لا تتراكم الثقافاتُ والآداب والفنون والمعارف والعلوم وتتفاعل إلا في رحلة العمر الممتدة ومحطاته المتنوعة، ولا تتخصب وتنضج إلا ببطءٍ وزمن مديد.

موضةُ الرواية اليوم تستخفُ بمختلف أشكال الكتابة سواها، بعد أن تحولت إلى هوسٍ صاخب يثيرُ الغثيان. سألني شخصٌ ممن تقدم به العمرُ، لا شغف له بالقراءة، ولا علاقة له بالكتاب والمكتبات، أنه يريد أن يبدأ بكتابة رواية فماذا يفعل؟

قلت له: الكتابة الإبداعية لا تولد بقرار، أنا لستُ روائيًا ولا ناقدًا، ولم أجرؤ حتى اليوم على كتابة رواية. الرواية من أثمن أجناس الكتابة وأغناها وأصعبها احترافًا. ليست الروايةُ تكديسَ ألفاظ أو حكايات مبعثرة، الرواية تتطلب من الكاتب موهبةً ومهارة لن تكونا طيّعتين إلا بعد تراكمٍ معرفي وجمالي واسع وعميق، ومطالعاتٍ غزيرة لأعظم الروائيين العالمين والعرب، وتمارين شاقة على الكتابة تصل حدَّ الانهاك. تتناغم في فضاء الرواية أجناسٌ كتابية وفنون ومعارف متنوعة، ما يحتاج معها الروائي، مضافًا إلى الموهبة، ثقافةً موسوعية يلتقي فيها مختلفُ أنواع الثقافات والآداب والفنون والمعارف، وشغفًا مبكرًا بالمطالعات المتنوعة. ليس هناك نصٌّ يبدأ

من لا شيء، النصُّ المكثّفُ نسيجٌ يحيلُ إلى ما يختزنه الكاتبُ من نصوص قرأها في مراحل متوالية من حياته. تتجلى براعةُ الكاتب في استلهام ما يمده به الخزّانُ المترسب من قراءاته في أعماقه، وقدرته على الابداع.

كاتب الرواية المبدع يحتاج مدةً طويلة من القراءة وزيارات ميدانية، والتشبع بمناخات أماكن وأزمنة أحداث روايته وأبطالها. بعض الكتّاب يمضي مدة طويلة في التحضير لعمله الروائي أحيانًا، ربما يتطلب التحضيرُ للرواية عدة سنوات. قرأت لأمبرتو إيكو أنه أمضى ثمان سنوات من أجل كتابة بندول فوكو، يقول: «في الفترة التي كنت أحضّر فيها لكتابة روايتي بندول فوكو، قضيت ليالي بأكملها أتجول في ردهات معهد الفنون والحرف في باريس، حيث تدور بعض أحداث القصة، إلى أن يغلق أبوابه. ومن أجل وصف تجوال كاسوبون ليلاً في باريس من المعهد إلى ساحة ليفوج، ثم إلى برج إيفل، قضيت ليالي كثيرة أتجول في المدينة بين الثانية والثالثة صباحاً، أهمس في مسجل مدوناً ملاحظاتي حول ما أرى، ولكي لا أخطئ في أسماء الأزقة والمدارات»[1]. ويحتاج كاتب الرواية إلى اعتكاف طويل وعزلة وتفرغ بعيدًا عن الناس ومشاغل الحياة اليومية. يكتب الروائي الحائز على جائزة نوبل أورهان باموق: «لمدة ثلاثين عامًا كنت أقضي معدل عشر ساعات يوميًا وحدي في غرفة، أجلس إلى مكتبي. وإذا أحصيت

(1) إيكو، أمبرتو، اعترافات روائي ناشئ، ترجمة: سعيد بنغراد، ص 26 ـ 27، 2014، المركز الثقافي العربي، بيروت.

فقط العمل الجيد الذي يمكن نشره، فإن معدل اليومي سيكون أقل كثيرًا من نصف صفحة. فمعظم ما أكتبه لا يرقى إلى ما أرى أنه المعيار القياسي للجودة في نظري... لكي أكتب جيدًا، لابد أولاً أن أشعر بالملل حتى الجنون، ولكي أشعر بالملل حتى الجنون، لا بد أن أدخل فى الحياة»[1].

الروائي الحاذق لا يقف عند القراءة والتخيّل، بل يجد نفسَه يتقمّص أدوارَ أبطال روايته ومواقفهم، ويتموضع في أماكنها وأزمنة حوادثها، وينصهر بوقائعها، يعيش الأحداثَ ويتماهى مع الشخصيات ويسكن الأماكنَ وتسكنه. لفرط شغف الروائي يقع في فضاء الحدث ويتلبّس به كأنه هو مَن عاشه، ويلبث فيه مادام يفكر ويتخيل ويكتب عمله، لا يستطيع أن ينفكّ عنه في اليقظة، وعادة ما يلاحقه في نومه وأحلامه وكوابيسه. لا يمكنه نسيانُ حضور شخصيات روايته، يتوحّد معها إلى حدٍّ تتغلّب مشاعرهم على مشاعره وينعكس صدى انفعالاتِهم ومواقفهم في انفعالاته ومواقفه، تقول الروائية جاكلين ويلسون: «أتحول إلى الشخصية الرئيسية في رواياتي، ونادرًا ما أدرك أن أصابعي تكتب على لوحة المفاتيح، بسبب إحساسي بكل مشاعر تلك الشخصية من عينيها... ولطالما ذهبت إلى النوم وأنا أفكر في شخصياتي، وعندما استيقظ أجد تلك الشخصياتَ في رأسي، فأكون على استعداد للكتابة مرةً

(1) باموق، أورهان، ألوان أخرى: قصة جديدة ومقالات، ص 18 ـ 19، 2009، دار الشروق، القاهرة.

أخرى»[1]. لفرط اندكاكه بكلِّ شيء في روايته ربما يأخذ الروائي شيئًا من كلِّ شيءٍ فيها إلى المستقبل، ولعمق تقمّصه لكلِّ التفاصيل وما يقع فيها تكون شخصيتُه حالةَ الكتابة كأنها صورةُ رواياته ورواياتِه صورةُ شخصيته. يتحدث نجيب محفوظ عن كمال عبد الجواد بطل ثلاثيته فيقول: «الأزمة الفكرية الخاصة بكمال هي أزمتي... التطور العقلي لكمال أذكر انني مررت به خطوة خطوة»[2].

تفرض الكتابةُ على الذهن أن يفكر بعمق في كلّ كلمة، اللغة ليست أداةَ تواصل فقط،كلّ كلمة تستبطن، منذ نشأتها وعبر رحلتها الطويلة، معاني مستترة وأخرى مندثرة. تطويعُ لغة الكتابة أشدُّ امتحانات كلِّ كاتب، غالباً ما تظهرُ حذاقةُ الكاتب في القدرة على الاستمرار بتغذِية الذهن بكلماتٍ يسطعُ ألقُها ويرتسمُ معناها بذهن القارئ، وبراعته في حرصه على عدم استنفاد ما تختزنه ذاكرتُه من هذا النوع من الكلمات. لغة الكتابة الجيدة صافية، أفكارها واضحة، أسلوبها يتقن اقتصادَ الألفاظ، لا تغرقه كلماتٌ لا تقول شيئًا. تكتب الروائية إيزابيل الليندي: «أنا أصحح إلى حد الإنهاك، وفي النهاية أستسلم. الرواية دائمًا غير منتهية تمامًا، ودائمًا ما أفترض بأنها يمكن أن تكون أفضل، ولكنني أبذل قصارى جهدي... أن تستعبدك حكاية فهذا مرض. إنني أحملُ القصة في داخلي طوال اليوم، طوال الليل، في أحلامي، في جميع الأوقات.

---

(1) يوم من حياة كاتب: 59 كاتبًا يتحدثون عن روتين الكتابة، ترجمة: علي زين، ص 119 ـ 121، ط 2، 2021، منشورات جدل، الكويت.

(2) نجيب محفوظ، أتحدث إليكم، ص 33 ـ 34، ط 1، 1977، دار العودة، بيروت.

كلُّ شيء أراه، كل شيء يحدث، يشعرني بأن الكون يتحدث معي لأنني أوصل القصة... لا أزال خائفة من امتناع قدرتي عن الكتابة. الأمر أشبه بابتلاع الرمل، إنه مروّع»[1].

يرى الروائي المبدعُ صورةَ العالم في أصغر الأشياء في عينه وأقصاها عنه، يرى كهلًا في طفل، يرى غابةً في شجرة، يرى جبلًا في صخرة، يرى شلالًا في قطرة، يمكن أن يرى في أصغر شيء كلَّ شيء. المبدعُ يتحسّس ما لا يتحسّسه غيرُه، وينفعل بما لا ينفعل به غيرُه، ويتألم بما لا يؤلم غيرَه، ويكتئب بما لا يكتئب به غيرُه، ويبتهج بما لا يبهج غيرُه.كأنه يرى جزئيات كلّ شيء وذراته بمجهرٍ يضيء التفاصيلَ الهامشية بما يعجز عن رؤيته غيرُه.كلُّ قصة مادة ثرية لتأليف رواية ترسم لنا شيئًا من تجليات أعماق النفس الإنسانية، وتكشف ملامحَ صورة الإنسان ومختلف أحواله وهواجسه وقلقه وتناقضاته، والعالَم الذي يعيش فيه. حياةُ كلّ إنسان قصةٌ بل سلسلةُ قصص لا تكرّرها حياةُ إنسان آخر.كلُّ شيء في هذا العالم قصة، الكتابُ قصة، القصيدةُ قصة، الكلمةُ قصة، البذرةُ قصة، النبتةُ قصة، الوردةُ قصة، الشجرةُ قصة.كلُّ علاقة لإنسان بإنسان، كلُّ حدث، كلُّ نجاح، كلُّ فشل،كلُّ حزن، كلُّ فرح، كلُّ شيء مهما كان قصة تتسم بفرادة. تحكي كلُّ قصةٍ تميّز هذا الكائن واختلاف أحواله ومواقفه وانفعالاته وأفعاله. يقول

(1) ميريدث ماران، لماذا نكتب: عشرون من الكتّاب الناجحين يجيبون على أسئلة الكتابة، ترجمة: مجموعة من المترجمين، مراجعة وتحقيق: بثينة العيسى، ص 32 ـ 35، ط3، 2013، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

يونغ: «في بعض الأحيان تستطيع شجرةٌ إخبارك أكثر مما تستطيع الكتبُ إخبارك به»[1].

تكتب سفيتلانا أليكسيفيتش الحائزة على جائزة نوبل سنة 2015: «اخترت نوعا تتكلم فيه الأصوات البشرية تلقائياً من غير وسيط... لا أسجل التاريخ المجرد والحقائق الجافة، أنا أكتب تاريخ المشاعر الإنسانية، ما يفكر به الناس، وما يسمعونه أو يبتكرونه خلال وقوع الأحداث، ما يؤمنون به أو ما لا يثقون به، ما يتوهمونه، والآمال والمخاوف التي يمرون بها... لقد استغرقت ثلاث أو أربع سنوات لكتابة كل واحد من كتبي. أنا أصادف وأسجل لقاءاتي مع 500 ـ 700 شخص في كل كتاب. التاريخ الذي أكتبه يضم عدة أجيال، يبدأ من ذكريات الناس الذين عاصروا ثورة 1917 ومروا بالحروب وبكولاك ستالين، ووصلوا إلى وقتنا الراهن سالمين. هذه هي حكاية الروح الروسية السوفييتية»[2].

لا يجد الكاتبُ نفسَه على حالة واحدة حين يكتب، ربما يكتب نصًا لحظة توهجٍ ما لن يعود قادرًا على كتابة ما يشبهه في لحظة آتية. الكاتبُ الحقيقي مبدِع، الإبداع اختراقٌ للقوانين المتعارَفة للكتابة وخروجٌ على الطرق المرسومة من قبل، ومغادرةٌ للأساليب المملة. أحيانًا يعجب الكاتبَ نصٌّ، ينزلق قلمَه عندما يحاول تقليده، لا هو ارتقى إلى لغته، ولا استطاع أن ينتج نصَّه الخاص. أحيانًا يحاول أن يستأنف محاكاةَ نصِّه

(1) هكذا تكلم كارل غوستاف يونغ، ترجمها وعلق على نصوصها: أحمد الزناتي، 165، 2022، الكويت. عن: (كارل غ. يونغ، الرسائل، الجزء الأول، صفحة 179).
(2) جريدة العالم (بغداد)، 12 ـ 10 ـ 2015.

الذي أنتجه كما هو مرةً أخرى، فيجد قلمَه يعاند تكرارَ التجربة مهما حاول أن يكرهَه على ذلك.

النصُّ كائن حيّ يختلف باختلاف مثابرة وموهبة ولغة وعصر وحالة مَن يكتبه. لو كان الكاتبُ يكرّرُ ما يكتبُه غيرُه ويطابقُه، لأصبحت الكتابةُ نسخةً واحدة، ولما تمايز كاتبٌ عن كاتبٍ وإبداعٌ عن إبداع، ولصار كلُّ الروائيين دوستويفسكي، وكلُّ الفلاسفة إيمانويل كانط، وكلُّ العرفاء النفّري ومحيي الدين بن عربي وجلال الدين الرومي، وكلُّ الأدباء العرب الجاحظ وطه حسين ونجيب محفوظ وعبدالرحمن منيف.

- 15 -

الكتابة بوصفها سلطة

ظهر التدوين مبكراً، وابتكر الانسانُ طرائقَ متنوعة لتدوين كتاباته، مذ كان يرسم صورةَ أفكاره ومعتقداته وأحلامه وأساطيره على جدران الكهوف، ثم انتقل للكتابة على الحجر، وألواح الطين، والبردي، والعظام، والجلود، إلى أن اخترعَ الورق في الصين، واخترع غوتنبرغ المطبعة الحديثة. ظلت الكتابةُ على الدوام أثرى مستودعٍ أودع فيه الانسانُ منجزاتِه وإبداعاته، وأوسعَ خزّان يستوعب أحلامَ الإنسان وأفكارَه وأساطيره ومتخيَّله، وسجلًا يحتفظ بأوجاعه، ومدونةً لأرشفة مواقفه.

جرى توظيفُ الكتابة في مختلف العصور بوصفها سلطةً تمنح مشروعيةً باسم السماء للحاكم، يستعملها في ترويض المحكومين على الطاعة وقهرهم وإخضاعهم. في حضارة وادي الرافدين ما هو مكتشف أكثر من مليون لوح ورقيم كتابي قبل أكثر من نصف قرن[1]، غير أن ما له قيمة نوعية، وما استطاع أن يخترقَ العصور التاريخية،

(1) مالم يُكتشف في المواقع الأثرية غير المنقبة أضعاف ذلك بكثير كما يخبرنا الآثاريون، إذ يشير هؤلاء الخبراء إلى وجود أكثر من 12 ألف موقع أثري، أكثرها مازالت خارج عمليات التنقيب، ولم تستكمل تلك العمليات في المواقع المشهورة منها.

نصوصٌ نادرة من ذلك الموروث الهائل. ملحمةُ جلجامش، شريعةُ أور نمو، شريعةُ حمورابي، الرياضياتُ البابلية، وشيءٌ من المدونات القليلة جدًا، هي الخالدة، وهذا هو الحال في ميراث حضارات أخرى متأخرة عنها.كانت الشرائعُ في حضارات بلاد الرافدين تستمدّ مشروعيتَها ومصدرَ الإلزام فيها من تدوينها باسم الآلهة، ففي مسلة حمورابي المدونة نحو 1772 ق.م، يظهر الملكُ حمورابي وهو يقف أمام إله الشمس «إله العدالة»، يتلقى منه القوانين. وسبقت حمورابي شرائعُ سومرية كثيرة، فقد «كانت أقدم مدونة قانونية في التاريخ شريعة أوروكاجينا في القرن 24 ق.م. والثانية من حيث العراقة شريعة أورنمو (2047 ـ 2030 ق.م) [أو 2112 ـ 2095 ق.م] الذي أسس ـ في سومر ـ سلالة أور الثالثة، وربما يكون ابن أورنمو وخليفته شولكي (2029 ـ 1982 ق.م) [أو 2094 ـ 2047 ق.م] هو الذي أصدر القانون المنسوب إلى أبيه، فإن كان الأمر كذلك فالمرجح أنه أصدر القانون اعتمادًا على قانون أبيه أو امتثالًا لنصائحه»[1]. لم أقرأ عن شريعة قديمة، في حضارات سومر وبابل وآشور، لا تستمدّ شرعيتَها من الآلهة المعروفة في تلك الحضارات. ذلك أحد أهم أسباب الاهتمام بتلك الشرائع والحرص على كتابتها بعناية فائقة، وتعدد نسخها وتوارثها عبر الأجيال.

يعود صمودُ هذه المدونات القانونية وغيرها من النصوص الأدبية مثل ملحمة جلجامش، أمام عوامل التعرية التاريخية، مضافًا

(1) Joshua J. Mark، عشر حقائق مهمة عن العراق القديم، ترجمة: الحسين الطاهر، مقالة منشورة على الانترنت.

إلى ما سبق، إلى قيمتها الفنية الإبداعية، ومضمونها الوظيفي، ورصيدها الاجتماعي، ووظيفتها الأساسية بوصفها سلطة، وكونها أداةً لتمكين السلطات السياسية والعسكرية والدينية من الحكم. السلطة تكتب مدونتَها على وفق طريقتها في التسلط، وما ترسمه من حدود للهيمنة على حياة ومصائر المحكومين، ومن خلال هذه المدونة تستمدّ شرعيتَها وانصياع الشعب لها، وتنتسب هذه الشرعيةُ في الحكومات الثيوقراطية عبر التاريخ دائمًا إلى السماء. فئةُ الكتّاب تكتسب مكانةً إضافية بعملها في الكتابة تتفوق بها على غيرها من فئات المجتمع. صارت الكتابةُ كمؤسسة تتجاوز كونَها حرفةً فنية إلى إضفاء قوة وهالة على الكاتب، وسلطةً تمنحها له ممارسةُ هذه الحرفة. يرى الأنثروبولوجي الشهير كلود ليفي شتراوس في رحلته مع قبائل النامبيكوارا، بأن الكتابة «ظهرت، لكن ليس كما قد يتبادر الى الذهن، نتيجة لتعلمٍ جاد، فقد تمت استعارة رمزها، بينما ظلت حقيقتها غريبة، لغاية اجتماعية أكثر منها فكرية. لم يكن المقصود هو المعرفة والحفظ والفهم، بل زيادة الهيبة والسلطة، لفردٍ، أو وظيفة على حساب الغير»[1]، ويضيف أيضاً: «وبهذا اكتشف أحد أهالي العصر الحجري، أن وسيلة الفهم العظمى، حتى إذا لم تُفهم، يمكن لها أن تستخدم لغايات اخرى. وعلى كل فطوال آلاف السنين، وحتى الآن[2] في جزء كبير من

(1) شتراوس، كلود ليفي، مداريات حزينة، ترجمة: محمد صبح، تقديم: د. فيصل دراج، دار كنعان ـ دمشق، ط1: 2003/ 2000.

(2) من الجدير بالذكر أن كتاب ليفي شتراوس: مدارات حزينة، ظهر عام 1955، وهو يتحدث عن رحلاته ما بين عام 1934 ـ 1939

العالم، وجِدتْ الكتابة كمؤسسة في مجتمعات لا يستطيع أفرادها في أغلبيتهم ممارستها»[1].

شهدت الكتابةُ منعطفات تحولت فيها من حالة إلى أخرى، كان تحولُ الكتابة الأول بالانتقال من الصورة إلى الحرف. بعد اكتشافه انتشر الحرفُ جغرافيًا وامتدّ زمانيًا، ولبث الحرفُ المسماري، الذي ظهر نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، أكثر من ثلاثة آلاف سنة أداةً للكتابة في حضارات بلاد الرافدين، وإيران، والشام. وفي حقبة تالية كُتبت اللغةُ المصرية القديمة بالخطوط: الهيروغليفية، والهيراطيقية، والديموطيقية، والقبطية. واستخدمت الأبجديةُ الفينيقية (الكنعانية) الحرفَ الفينيقي منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد إلى القرن الخامس قبل الميلاد. التحول الثاني في مسار الكتابة تمثّل في اختراع الصينيين للورق في القرن الميلادي الأول، انتشر الورق لاحقًا وكثرت مصانُعه في مختلف أنحاء العالم. الورقُ أحدث منعطفًا كبيرًا في سهولة الكتابة وتيسيرها، واتساع استعمالها خارج إطار النخبة المختصة بذلك. التحول الثالث تمثل في اختراع الألماني يوهان غوتنبرغ أول مطبعة حديثة بحروف متحركة، بدأ بتصنيعها سنة 1448 وأكملها سنة 1450. أحدثَ اختراعُ المطبعة منعطفًا كبيرًا، يسّر انتشارَ الكتاب وسهولة الحصول عليه في مختلف أنحاء العالم. جاء اختراعُ الإنترنت أخيرًا وحضورُه في كلّ شيء في حياة الإنسان بوصفه التحولَ الرابع الأسرع والأشد ايقاعًا والأعمق للكتابة، إنه تحول كمي وكيفي استثنائي مهول، أحدث انقلابًا في وظيفة

(1) مداريات حزينة، كلود ليفي شتراوس، ترجمة: محمد صبح، تقديم: د. فيصل دراج، دار كنعان ـ دمشق، ط1: 2003/ 2000.

الكتابة، وأساليبها، ومضمونها، وكيفية تلقيها، وعبورها للاختصاص والانحصار بفئة الكتّاب، وهيمنتها واتساع استعمالها كسلطة.كلُّ إنسان بوسعه أن يصبح كاتبًا اليوم، ينشر ما يكتب مهما كانت لغتُه وبيانُه ومضمونُ كلماته. في كلِّ العصور جرى استعمال الكتابة بوصفها سلطة، في عصر الإنترنت تجاوزت سلطةُ الكتابة حدودَها المعروفة، وأمست متاحةً للجميع، يستعملها مَن يشاء كما يشاء.

شلال الكتابة الهادر في الإنترنت، لا يترك للإنسان فرصةً للتفكير والتأمل، والتريث في تمييز وفرز ما تتوفر فيه شروطُ الكتابة الحقيقية، وما هو هذر رث يأكل عمرَ الإنسان ويستنزف طاقاتِه لو انشغل بمتابعته والنظر فيه. عندما أعود للنشر في صفحات تطبيقات وسائل التواصل أشعر بقرف واشمئزاز من هجوم كتاباتٍ لا ينطبق عليها أيُّ مصداقٍ للكتابة، تنشغل بملاحقة الناس وانتهاك خصوصياتهم، وكيل التهم لهم، واستهدافهم بالأكاذيب.كلّما أردت الفرارَ منها وانتقاءَ النصوص النافعة أراها تلاحقني حيثما أنظر، لا أكاد أعثر على ما أبحث عنه إلا بتضييع وقتٍ كثير أنا بأمسّ الحاجة إليه.

مكتبة سُر مَن قرأ

- 16 -

الكتابة الأيديولوجية

وقعتُ في البدء بإغواء أخي الكبير الذي حفّزني على مطالعة بعض الكتب. لأخي في بداية حياتي هالةٌ تأسر ضميري، وسطوةٌ على عقلي، أنتجتها صلةٌ حميمية به منذ طفولتي، ومغادرتُه العراق إلى الكويت عندما كنتُ صغيرًا، ثم التحاقُ والدتي به وإقامتها معه، بعد سنواتٍ قليلة وأنا في نهاية المرحلة الابتدائية، حتى وفاتها سنة 1981. ارتقتْ صلتي العاطفية بأخي إلى الحدِّ الذي أصبح هو المثال لكلِّ شيء في حياتي، صارتْ هذه الصلةُ كأنها صلةُ يتيم الأب بأمه. كان ومازال أخي يريد لي دائمًا أجملَ ما يقتنيه، أو يراه، أو يعتقده خشبةَ خلاصٍ في دنياه وآخرته. أرشدني إلى نصوصِ سيد قطب وأمثالها، وأنا لا أعرف شيئًا عن الكتب، وليست لدي خبرةُ اختبار نصوصها ومضامينها. ورثتُ مثلما ورث أخي تدينَ أمي الفطري العذب، وكفاحَ أبي الفلّاح، وبراءةَ القلب المشبَع بسخاء الأرض. القلبُ البريء غيرُ محصنٍ من إغواء البشر والدعوات الحماسية. أغوتْ أخي أدبياتُ الجماعات الدينية وشعاراتُها التعبوية، وأصابه شيءٌ من الهوس الأيديولوجي في شبابه، فتحول إلى مبشّر حماسي. لم يتأمل برهةً ويعيد النظرَ في سطحية هذه الكتابات، وعجزِها

عن التأثير البنّاء في المجتمع، وفشلِها في بناء دولة مواطنةٍ حديثة، وسقوطِ بعض أتباعها في دوامة العنف.

أدمن أخي الأسفارَ منذ شبابه، عاش عقدَين من القرن الماضي في الكويت، ودرس ثلاث سنوات في معهد علوم طيران بباكستان قبل نصف قرن. وكان يقيم عدةَ أشهر في أواخر الستينيات في مصر، وتجول في أوروبا، وأقام في العقدَين الأخيرين من القرن الجديد في دولةٍ غربية حديثة، إلا أنه كان ومازال كغيره يحلم بدولةِ قانون عادلة، تستأنف دولَ الماضي المتخيَّلة في الإسلام، بلا رؤيةٍ للدولة الحديثة ونظمها وإداراتها وبرامجها. ظلَّ أخي يكرّر شعاراتٍ مبسطة، لم يحاكمها في ضوء الواقع وما شاهده في أسفاره، وعاشه في الدولة الحديثة التي هاجر إليها فرارًا من الشرق. لم يفكر أخي بنمطِ عيشه في هذه الدولة، ولم يتأمل نظمَها وما أنجزته لمواطنيها الذي أصبح أحدَهم. وعجز، كما أكثر جيله، عن تمحيصِ أحلامه واختبارِ مضمونها، ولم يتنبه للآثار الموجِعة لتلك الأحلام في حياة الأفراد والمجتمعات في بلادنا.

ينظر الأيديولوجي لكلِّ شيءٍ مركّب بعيونٍ لا ترى إلا وجهًا واحدًا، يرى الخيرَ والشرَّ والعدلَ والظلمَ والحقَّ والباطلَ من منظار الأيديولوجيا، الحُبّ والكراهيةُ تفرضها وتتحكم ببوصلتها الأيديولوجيا. تعطّل الأيديولوجيا الضميرَ وتسيّره على وفق رؤيتها، الضميرُ الأخلاقي اليقظ ينتصر للإنسان المظلوم حيثما كان، ولا يتضامن مع مظلوم، ويشمت بمظلوم آخر لا يعتنق رؤيتَه للعالَم. الأيديولوجيا نسقٌ مغلَقٌ، يغذّي الذهنَ بمنظومة معتقداتٍ ومفاهيم ومقولاتٍ نهائيةٍ، تعلن الحربَ على أيّة فكرةٍ لا تشبهها، تنتهي إلى إنتاجِ نسخٍ متشابهةٍ في الظاهر من البشر،

وتجييشِ الجمهور لرأيٍ واحدٍ، وموقفٍ واحد. يتبنّى الأيديولوجي نموذجًا تفسيريًّا مسطّحًا وأُحاديًّا، يمنحه شعورًا مزوّرًا بأنّه قادرٌ على الفهمِ الدقيق والتحليلِ العميق لكلّ شيءٍ، وأنّ أفكارَه مبتكرةٌ وفريدةٌ، ويلبثُ غارقًا لا يستفيق من عبوديته للأيديولوجيا، حتّى كأنّ سعادتَه في عبوديته هذه[1].

فجأةً بدأتُ قراءةَ كتابات سيد قطب المسرفة بالأدلجة، وأغوتني شعاراتُه، نصوصُه بارعة في رسم صورةٍ جذابة للرغبات والتمنيات والأوهام، تصيّرها كأنها واقعٌ مجسّد في متخيَّل المراهقين، وتخدعهم بضرورةِ العمل على استئنافِ حياة مجتمع الصحابة، ولو بالعنف. ذلك المجتمع صنعه الذهن، واصطلح عليه سيد قطب «جيل قرآني فريد»، فكان محصلةَ متخيَّلٍ ديني تضخّم خارج الزمان والمكان والواقع الذي عاش فيه الصحابةُ بوصفهم بشرًا اختصموا وتقاتلوا في مرحلةٍ لاحقة. وقائعُ صراعات ذلك الجيل «الفريد» وحروبُه الدامية، تكشف أن تلك الصورةَ نحتتها تمنياتٌ فرضها حلمُ الإنسان الأبدي بصناعة فردوسٍ أرضي، فحاول أن يغرسَ في ضميرِ الشباب مجموعةَ مقولات اعتقادية مغلقة، اعتناقُها شرطُ الإسلام الصحيح الذي يحلم به هو. يتسع مفهومُ الجاهلية عند سيد قطب ليشمل المجتمعاتِ الإسلامية، كما يصرّح بقوله: «يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة... لا لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله، ولكنها تدخل في هذا الإطار، لأنها لا تدين

(1) عبد الجبار الرفاعي، الدين والظمأ الأنطولوجي، ص 172ـ175، ط4، 2023، دار الرافدين ومركز دراسات فلسفة الدين، بيروت.

بالعبودية لله وحده في نظام حياتهـا... فهي ـ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ـ تعطي أخصَّ خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها، وقيمها، وموازينها، وعاداتها، وتقاليدها... موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلّها يتحدد في عبارة واحدة: أن يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها»[1]. ويعلن عن الردة الشاملة بقوله: «ارتدّت البشرية إلى عبادة العباد وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظلّ فريق منها يردد على المآذن لا إله إلا الله»[2].

كتاباتُ سيد قطب تتقن صناعةَ الغضب والاغتراب، قادت مقولاتُه شبابَ الجماعات الدينية إلى اغترابٍ عن عصرِهم وعن كلِّ إنسان لا يشبههم، وورطتهم بصراعٍ مفتوح مع أهلهم ومجتمعاتهم وأوطانهم، ومواجهةٍ مباشرة مع العالم بأسره. تخلص مقولاتُه إلى أن إسلامَ المسلم لا يتحقّق من دون اعتناقِ مقولاته والعملِ بها، مثل: «استعلاء الإيمان، جاهلية المجتمع الذي يعيش فيه، جاهلية الفلسفة والعلوم والمعارف الإنسانية، العزلة الشعورية»، وغير ذلك من معتقداتٍ تعزل المسلمَ عن كلِّ من حوله. لم يكن في هذه المقولات من جديدٍ إلا صياغتَها بمصطلحاتٍ وشعاراتٍ مثيرة كان يتقنها الرجل، وإلا فمضمونُها شائعٌ في التراث الكلامي والفقهي، تارةً بشكلٍ صريح وبلغةٍ تحريضية حادّة كما في آثار ابن تيمية ومَن يقلده، وأخرى بأساليب أقل حدّة، وإن كان مضمونُها

(1) سيد قطب، معالم في الطريق، ص101ـ103، دار الشروق، القاهرة.
(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج:4. ص:2009، دار الشروق، القاهرة.

يتطابق وما يدعو إليه، كما في آثار مختلف متكلمي الفرق وفقهاء المذاهب.

أنهيتُ الثانويةَ سنة 1973، في العامَين الأخيرَين من هذه المرحلة قرأتُ كتاباتِ سيد قطب وأمثاله؛كتبًا يحسبها القارئُ تقول كلَّ شيءٍ لكنها لا تقول شيئًا نافعًا، لا تقول إلا ما يثير فيك الغضبَ على كلِّ ما حولك، وكراهيةَ نفسك لأنك تعيش في مجتمعٍ جاهلي. حين أقرأ بعضَ فصول كتاباته التحريضية لا أخرج منها إلا بالمزيدِ من كراهية العالَم الذي أعيش فيه، والشعورِ باغترابٍ وعزلةٍ ونفور واكتئاب من كلِّ إنسان لا يشبه هذا النوعَ من التفكير الذي صاغته تمنياتُه ورغباتُه وأوهامُه. لكني سرعان ما تحرّرتُ من مقولاته، وبعد سنواتٍ عدتُ إلى كتاباتِه وأشباهِها فرأيتُها سطحيةً تعجز عن وعي الواقع العميق، فهي أقربُ للأحلام الرمانسية منها إلى الفكر، ولا يقع في فتنتها إلا الشبابُ المراهقون المقهورون من بطش الاستبداد. شيءٌ من كلماته كان منقوعًا بالدم، كتبه إنسانٌ موتورٌ من الدولة الحديثة، ومناهضٌ للفلسفة ومكاسب العلوم والمعارف الحديثة، مولَعٌ بدولةٍ صنعتها أحلامُه وأوهامُه التي اخترعتْ تاريخًا تتنكر إليه وقائعُ حياة مجتمع دول الخلافة والسلطنة ونمطُ عيش الإنسان فيها، لا نراه إلا في تمنيات خيالية ورغبات موهومة. استقى مادتَه الخام من متخيَّلٍ اتسع وترسّخ عبر التاريخ، وكان بارعًا في إعادة رسم صورته بشكلٍ يُشعر الشبابَ بأنه حقيقةٌ لا مراء فيها.

كان هذا الكاتبُ معذَّبًا يتقن إيقادَ مشاعر المعذبين، ويجيد صناعةَ الشعارات التعبوية المحرِّضة على الكراهية والعنف. ولفرط سطوة التمنيات يخيَّل إليه أنها تتحول إلى واقعٍ مجسّد. كتاباتُه وأشباهُها من

كتابات غيره ألهمت الرغباتِ الموهومة شعاراتٍ توقد مشاعرَ أبناء الحرمان المراهقين، وتستفزّ كلماتُه عواطفَهم وتوقد غضبَهم على كلِّ شيء في مجتمعهم، وتبرع في تأجيجِ انفعالاتهم، وتفجيرِ مكبوتات عقد المظلومية والاضطهاد والحرمان والجوع وكلِّ ما أنهكهم في حياتهم. ساقتني هذه الكتاباتُ لرحلةٍ مضنية سرقتْ بعضَ سنوات عمري، أمضيتُها في قراءة عشرات الكتب، لأبي الأعلى المودودي وأبي الحسن الندوي ومحمد قطب وتقي الدين النبهاني ومحمد البهي وأنور الجندي ومحمد فتحي عثمان، وأمثالِهم من كتّاب الجماعات الدينية السنية والشيعية. وحين استفاق عقلي بعد بضعة سنوات، وجدتُه ممزقًا افترسته أوهامُ وعي زائف، لبث غائبًا عن الواقع وغارقًا بأحلام رومانسية وأوهام ووعود خلاصية. قرأتُ أكثرَ أدبيات الجماعات الدينية، رأيتُها بعد مراجعتها نقديًا تستند إلى الأشعرية كبنيةٍ اعتقادية، ويتسيّد فيها تفكيرٌ رغبوي وأمنياتٌ لكتّاب لا يفهمون الدولةَ الحديثة، ويفهمون الواقعَ المعقد فهمًا مبسّطًا ساذجًا، لا يتوغل في ديناميات التغيير الاجتماعي وعوامله المتشعبة المتنوعة. يختزلون أسبابَ كلّ ظاهرة بسببٍ واحد، ويفسرون كلَّ شيءٍ بشيءٍ واحد، يرون أن سببَ كلِّ مشاكل عالم الإسلام هو انهيارُ دولة الخلافة، ويختصرون أمانيهم بأمنيةٍ واحدة تعود فيها تلك الدولةُ القديمة. فهم يتهمون مَن يكتب عن رموزٍ تثري الهويةَ الوطنية وتكرّسها، أنهم يعتاشون على تفجير حروبِ الهويات الطائفية. لا تتغير المجتمعاتُ اليوم بشعاراتٍ مجوفة، أو كتاباتٍ تحريضية ضد كلِّ شيءٍ من حولنا، ولا بكتاباتٍ تستمدّ فاعليتَها من أوهامٍ أنتجها المتخيَّل التاريخي، يصاب القارئُ بالضجر من إيهامه

بأنها تقول كلَّ شيء إلا أنه لحظة يستفيق يراها تكرّر عباراتٍ وإجاباتٍ جاهزة، فلا تقول شيئا علميًا دقيقًا.

مشكلة أكثر هؤلاء جهلهُم بالتراثِ الإسلامي العقلاني وتراثِ الأديان الأخرى، مضافًا إلى جهلِهم بعلم الأديان الحديث. أدبياتُ هذه الجماعات تفتقر لعمقِ التراث العقلي في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وطرائقِ المناظرة والنقاش فيها، ولا تنعكس فيها استدلالاتُ الأصوليين وتفريعاتُها وتطبيقاتُها الفقهية المتنوعة، ولا أثرَ فيها لاستبصاراتِ العرفاء وثراءِ تجاربهم الروحية. لا تضيف عند مطالعتها إلا مجموعةَ شعاراتٍ لم يتحقّق شيءٌ منها في الواقع، كالشعار الملتبس: «الإسلام هو الحل»، وغير ذلك من شعارات غائمة؛ دلّلت على إخفاقها التجاربُ المتنوعة لدول دينية هشّة في بلادنا العربية وغيرها في عالم الإسلام، تتداعى اليوم وتتداعى معها منظوماتُ القيم والتضامن والثقة والمواطنة في بلادنا.

لا تختصّ أدلجةُ الدين بالإسلام أو غيرِه من الأديان،كلُّ ديانةٍ ومذهب وعقيدة يمكن تحويلُها إلى أيديولوجيا مغلقة. الماركسية والقومية والعنصرية والفاشية والنازية صارت أيديولوجيات أشدَّ انغلاقًا وتشدّدًا من سواها في مختلفِ بلدان العالم.

- 17 -

تفسيرُ كلِّ شيء بشيءٍ واحد

ذهبتُ سنة 1980 بمعية الصديق العزيز د. حسين الفضلي أستاذ علم الاجتماع بجامعة الكويت سابقًا، إلى مكتبة في العاصمة الكويتية فنبهنا صاحبُها، وهو رجلٌ كهلٌ يعتنق عقيدةَ جماعة دينية مغالية، إلى كراس بعنوان: «مذكرات مستر همفر»، مدحه كثيرًا، وقال إنه مترجم عن الإنجليزية. اشترينا نسختين، ولكن أول ما لفت نظرَنا عدمُ ذكر اسم المترجِم، ولا الأصل الإنجليزي الذي نقله النصُّ العربي، ولم نعرف من قبل رحالةً ومستشرقًا انجليزيًا باسم «مستر همفر». فور العودة لمقرّ إقامتي قرأتُه في ساعةٍ واحدة، ووجدتُه كلّه أكاذيب، سطرها، بلغةٍ بليدة مبتذلة، شخصٌ مجهول مسكون بالتآمر إطارًا للتفسير. تذكرتُ بتلقائية مؤسفة أمثاله من كتب كنا نتداولها في مراهقتنا السياسية، تتفاوت في الدرجة، وتتطابق في الكيفية والغرض الذي تنشده، مثل كتابات أنور الجندي وأمثاله. ضاعت أيامٌ ثمينة من عمري بقراءة كتبٍ تعتمد التآمرَ إطارًا لتفسير كل واقعة.كلُّ شيءٍ في السياسة وغيرها يحدث في بلادنا تخضعه تلك الكتبُ لهذا النوع من التفسير الأُحادي. وقد كان لتفشي هذه الكتابات أثرٌ فتاك في تزييفِ وعي الشباب، وتخريبِ التفكير السليم. أعترف أني تورطتُ بهذا

النهج في بداياتي المنشورة، واصطادني هذا الفخُّ فنشرت قبل نحو 42 عاماً مقالاتٍ بأسماء مستعارة، بُني مضمونُها على تفسيرٍ تآمري لكلِّ ما كان يجري في بلادنا، غاضة النظر عن عوامل التخلّف الداخلية كلها.

غالباً ما يلجأ الإنسان الذي لا يفكر بهدوء وتأمل إلى إجابات وتفسيرات جاهزة وساذجة لأعقد المشكلات. فالنكوص الأُحادي الذي يعزو كلَّ ظاهرة وأثر إلى شيءٍ واحد، ويختزل كلَّ الأسباب بسببٍ واحد، جاهزٌ ومُشاعٌ لمن لا يطيق التفكير. إنه حلٌّ عاجل لا يتطلب أيَّ تقصّ، فيشجع كلَّ إنسان، مهما كان مستوى وعيه، للتشبث به، واعتماده كاستنتاج «محصّن» لما يسمع ويرى من وقائع.

ليس كلُّ إنسان قادرًا على إيقاظ عقله ثم توظيفه في الفهم. العقلُ النائم مرتاح، الإنسانُ كسولٌ يزعجُه إيقاظُ عقله، فيلجأ بسهولة لاستعارة التفسيرات الجزافية المتداولة بشكل واسع. عادة ما لايتطلب هذا الميل يقظةً للعقل وتأملًا صبورًا، ولا يدعوه للتقصي عن نسيج العوامل المتشعبة والمتنوعة لإنتاج الواقعة. تداولُ أيّ تفسير بشكل واسع يرسخه، ثم يرتقي به إلى بداهات العقل الجمعي، ويصيّره تالياً حقيقةً نهائية لا تقبل النقاشَ لدى أكثر الناس. التفكيرُ الهادئ لا تطيقه إلا العقولُ الحاذقة، ولا يلجأ إليه إلا إنسانٌ ذكي قادرٌ على تحريض وعيه وتوظيفه من أجل فهم المحسوسات والظواهر والأحداث. التفكيرُ الهادئ الصبور يتوغل في بنية الحالات العميقة، ويكتشفُ العواملَ المستترة للوقائع، فيقدّم بالحفر والتنقيب تفسيرًا لمختلف الأشياء والظواهر والحالات يصل غالباً إلى مدياته الآمنة؛ من خلال التعرف

على العوامل الظاهرة والخفية لها. هذا التفكيرُ لا يطيقه كثيرٌ من الناس لأنه مرهِقٌ للذهن، وطالما شغل الإنسانَ عن متع الحياة الحسّية، وعكّر مزاجَه الشخصي.

التآمرُ بوصفة إطارًا لتفسير الأحداث والمواقف الفردية والمجتمعية قديمٌ في التاريخ قدم الإنسان، وخبرته بحماية ذاته والإعلاء منها، وتبريره المتواصل لأخطائه، وعجزه عن الاعتراف بضعفه وهشاشته، والتنكر لكونه كائنًا مطبوعًا على النقص والخطأ. الإنسان بارع في حماية نفسه وتنزيهها والإعلاء منها، ودائمًا ثم دائباً ما يبحث عن مشجب يعلّق عجزَه وفشلَه عليه. لا يختصّ هذا الإطار المشاع والمُستهلَك بفرد أو مجتمع أو ثقافة أو ديانة أو معتقد أو حقل معرفي، وإنما وُجدَ حيثما وجدت أحداثٌ مثيرة ومواقفُ غريبة، ويظهر تغوله في السياسة باستمرار. وقد ازدادت فاعليتُه بشكلٍ لافت، حتى صار أحدَ الظواهر المتفشية في المعرفة العاميّة غير العلمية، والأدبيات الشعبوية للجماعات الراديكالية اليسارية أممية وقومية. وانتقلت عدواه بسهولة بالغة إلى الجماعات الأصولية، الأكثر دراية بمخزونٍ لا ينضب من اللاوعي الجمعي، لتمدّ عنقها عالياً أو عميقاً نحو التآمر بوصفه مجالاً للتفسير. وقد تمرست هذه الجماعاتُ بابتكارِ صيغٍ جديدة للتفسير التآمري لأكثر ما يجري من تحولات وأحداث ومواقف، وغرسِها واستنباتها وتعميمها بسهولة. أمسى إنتاجُ كتابات تعتمد هذا التفسير حرفةً تتخصص بها دوائرُ تمتلك خبرةً مهنية في الحرب النفسية، وبثِّ الشائعات، وصناعةِ الرأي العام، تحترفها أجهزةُ مخابرات الأنظمة الشمولية، ومختلف الحركات اليسارية والقومية والأصولية في بلادنا.

لا أنكر وجودَ مؤامرات، فكلّما كان الإنسانُ أذكى كان أكثرَ دهاء، وأكثرَ قدرةً على ابتكار مختلف الخطط والأساليب والوسائل للتمويه والخداع من أجل بلوغ أهدافه، ما يخفيه مثلُ هذا الإنسان أكثر مما يظهره، إذ يلجأ لتحقيق غاياته إلى مختلف الوسائل.كلّما كانت غاياتُه أعظمَ وأكثرَ عرضةً للرفض والإجهاض كان تخطيطُه أدقَّ وأخفى. يحاول دائمًا أن يسلك سبلًا مراوِغة أكثر من المباشرة، ومكتومةً أكثر من المعلنة، حتى يحقق غاياته، وقد يلجأ أحياناً لاستخدام وسائل غير مشروعة أخلاقيًا.

لا أريد التنكرَ لأشكالِ الغزو القديمة والحديثة، وكيف كان اجتياح الإسكندر المقدوني العدواني للعالم القديم، ولا كيف اجتاحت الحروبُ والفتوحات العالمَ، ثم ما راكمته من أموال وممتلكات وأراض ورقيق؛ بما في ذلك ما أدى إليه، جانبياً، تقدمُ الغرب في العلوم والمعارف والفنون والآداب من تطورات غير مسبوقة في كلِّ تاريخ البشرية. ولا أنكر تبني وصناعة الغرب الحديث لمأساة الاستعمار، وهو ظاهرةٌ مقيتة لم تتردّد في استعبادِ مجتمعات بأسرها، والسطوِ على ثرواتها، واستنزافِ مواردها وكلِّ ما تمتلكه. الغزاة، عبر الأزمنة، يقتلون ويسترقّون الإنسانَ وينهبون كنوزَ البلاد المنكوبة وثرواتها ومواطنها، غير أن الغزو الإسباني سنة 1492 ثم الأوروبي للأمريكتين تمادى في التوحش فأباد حضارات وسكانَها بوحشية مريعة واستولى على ديارها. ومازالت شواهد وأطلال هذه الحضارات ترثي أهلَها، مثل: حضارة نورتي شيكو، حضارة أولمك، حضارة المايا، حضارة الإنكا، حضارة الزابوتيك، حضارة نازكا،

حضارة إمبراطورية تيواناكو، حضارة واري، حضارة المسيسيبي، وحضارة الأزتك.

غني عن القول أن الاحتلال أو الاستعمار ضربٌ من التواطؤ الفردي والمجتمعي اللاأخلاقي لاستعبادِ الغير وتسخيرِه لخدمة المُستعمِر والمحتل. لكن تكمن المفارقة بأن الغربَ الحديث ذاته قد ابتكر لنفسه أحدثَ صيغةٍ للتداولِ السلمي للسلطة، وفصلِ السلطات، وبناءِ الحكم والإدارة ونظم الدولة المتنوعة الحديثة، وتأسيسِ الدولة الديمقراطية، وضمانِ حقوق مواطنيه وحرياتهم، داخل حدود دولته خاصة.

الكلام عن التآمر بوصفه إطارًا للتفسير ليس دفاعًا أو تبريرًا للاستعمار، فأنا لا أثق بالاحتلال مهما كانت الأسماءُ التي يتخفى خلفها، وضدّ كلّ شكل من أشكال انتهاك حقوق الإنسان واستعباده واستلاب حرياته تحت أيّ شعار وتسمية، سواء كانت تلك الانتهاكاتُ تحت راية الرأسمالية أو الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية أو الأصولية. وكذلك فأنا ضدّ كلّ الوصايات على وطني ومجتمعي، وضدّ كلّ أشكال الانتهاك لسيادة وطني من أية دولة قريبة أو بعيدة. وأيضاً ضدّ أية مشروعية لسلطة مستعارة من خارج إرادة الشعب بأي عنوان كانت. كلُّ الكفاح الذي خاضته البشرية منذ فجر التاريخ حتى هذه اللحظة كان وما زال من أجل استرداد الكرامة والحريات والحقوق الإنسانية. الغزو والاستعمار والاحتلال وكلّ أشكال الاستغلال والعنصرية لا يمكن الشفاءُ منها بشكلٍ تام في المجتمعات والدول والحضارات أمس واليوم.

التنكرُ للأخطاء أحدُ أهم عوامل العجز العربي والإسلامي المزمن، وهو أحدُ بواعث تسيّد التآمرُ بوصفة إطارًا لتفسير الأحداث. الإنسانُ كائن مسكون بإعلاء ذاته، وحماية صورته أمام نفسه وغيره بمختلف الوسائل، وهذا الضرب من التفسير يمثل حيلةً لحماية الهوية المغلقة للجماعات من أن تتصدع أو تتثلم أو تتهشم. نرى هذا التفسيرَ ماثلًا في الحكم على الصراعات والمعارك المريرة بين الفرق والمذاهب في الماضي، حتى أن بعض الكتّاب يحيل نشوءَ أكثر الفرق والمذاهب والفلسفة والتصوف في تاريخنا إلى مؤامرات أعداء الإسلام، ويفسِّر كلَّ ما حدث في تاريخنا البعيد والقريب إلى عدو خارجي يخطّط وينفذ بخفاء ثم يزجّنا في معارك مفتوحة. كما نرى هذا التفسيرَ ماثلًا اليوم في تبرير ما نعيشه من انقساماتٍ تتوالد منها نزاعاتٌ وصداماتٌ متواصلة، تستقي من إكراهات التاريخ وتراث تكفير المختلِف في المعتقَد.

يتسيّد يقينٌ راسخ في أذهان بعض الكتّاب بأن كلَّ شيء في الماضي مؤامرة،كلُّ شيء في الحاضر مؤامرة، كلّ شيء في المستقبل محكومٌ مسبقًا بأنه مؤامرة. يصعب جدًا على الأفراد والمجتمعات قبول إخفاقاتها وأخطائها وفشلها، تخاف دائمًا من فضح عوامل عجزها الداخلية، وتتهرب من دراسة الأسباب الماضية والحاضرة الكامنة لفشلها، فيلجأ الإنسانُ لصناعة العدو والتفنن في تصويره ورسم مهاراته وقدراته الاستثنائية على اختراق وإفساد كلِّ شيء مهما اتخذنا حياله من حصون.

«ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة»[1]، هذا شعار ضجّت به شوارعُ العراق سنة 1959، بعد الإعلان عن انقلاب في الموصل بسبب الصراع على السلطة والثروة داخل جماعة الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة. العراق من أكثر البلدان حديثًا عن المؤامرة، منذ ثورة 14 تموز 1958 وتسلم الجنرالات للسلطة، إلى 9 نيسان 2003 يوم احتلال بغداد وسقوط صدام حسين ونظامه، تورطت الأنظمةُ المتعاقبة والأحزاب السياسية والإعلام والثقافة والتربية والتعليم في هذا البلد بتبني التآمر بوصفه إطارًا للتفسير. بعد 6 أيام من وصوله الى الرئاسة ذبح صدام في 22 تموز 1979 رفاقَه في مجزرة قاعة الخلد، بذريعة التآمر عليه، وكان قد بدأ بتصفية رفاقه بالتدريج منذ انقلاب 17 تموز 1968، واعدام الأحرار في العراق بوحشية بتهمة التآمر على الحزب والثورة، ولم تنشر أجهزتُه الأمنية والمخابراتية أيةَ وثيقة يُطمئَن إليها تفضح ذلك التآمرَ المزعوم.

عملت التعبئةُ الأيديولوجية وخطاباتُ صدام وأمثاله على ترسيخ التفسير التآمري، بنحوٍ صار مكونًا غاطسًا في اللاوعي الفردي والجمعي، يتحدث فيه الناسُ بحماس بلا تدبر، ويصعب جدًا وربما يتعذر معه حضورُ التفسير الواقعي.كتّابٌ شعبويون كانوا ومازالوا مسكونين باتخاذ التآمر إطارًا للتفسير، سيئو الظن بالمواطن الذي ينتمي لحزبٍ غير أحزابهم، وأيديولوجيا غير الأيديولوجيا التي يعتنقونها، ومعتقَدٍ غير معتقَدهم، وهويةٍ غير هويتهم. هؤلاء المولعون بهذا

(1) «ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة» باللهجة العراقية، تعني: ليس من مؤامرة إلا وحبال المشنقة معدة لها.

التفسير يعجزون عن رؤية أيّ عامل يساهم في إنتاج الواقع، ما هو مكشوفٌ أمامهم يغمضون عيونهم ويصمون آذانهم عنه، يتجاهلون العواملَ الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية الداخلية المنتِجة للواقع الذي يعيشه المواطن. التفسيرُ السياسي متهمٌ في بلادنا، إن لم يعتمد التآمر إطارًا للتفسير، ولو حاول اكتشاف العوامل المحلية للفشل والإخفاق والتخلف، مهما كانت تلك العواملُ مكشوفةً وتعلن عن حضورها بكثافة وقوة.

أظن هذا الكلام يضعه بعضُ هؤلاء في خانة التآمر!

- 18 -

الكتابة بوصفها امتحانًا للضمير الأخلاقي

نشر شاعرٌ ستيني شهير في بغداد سيرةً بعنوان «شاعر في حياة: ذكريات وأطياف» سنة 2017 [1] سبقتْ وفاتَه بخمس سنوات. انتمى هذا الشاعرُ لحزب البعث في فترةٍ مبكرة من حياته، ومنذ انقلاب 1968 عمل في مواقع مهمة بمؤسسات إعلامية وثقافية متنوعة، كان يتنقل من مؤسسة لأخرى، أصبح سامي مهدي المديرَ العام لدائرة الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة والإعلام، والمديرَ العام للإذاعة والتلفزيون، ورئيسَ تحرير جريدة الجمهورية، وجريدة الثورة، ومجلة ألف باء، ومجلة الأقلام، ومجلة المثقف العربي، وغير ذلك من مناصب. فضلًا عن توظيفِ أدبه لمعارك صدام العبثية، مثل روايته الوحيدة: «الصعود إلى سيحان» سنة 1987، والاحتفاءِ بالحرب وتمجيدها. اشتهرت جريدتا الثورة والجمهورية ومجلة ألف باء بافتتاحياتها الصادحة بمديح البعث الصدامي، وصناعةِ أسطورة كائنٍ متوحش اسمه صدام حسين.

---

(1) يكتب سامي مهدي: «وهذا الكتاب ليس سيرة ذاتية، ولا سيرة أدبية، بل ذكريات على هامش السيرتين، وقبسات منهما، طغى فيهما الأدبي على غيره. ويتألف الكتاب من قسمين: الأول يتعلق بذكرياتي الأدبية المتعلقة بشخصي، والثاني يتعلق بأدباء وفنانين كانت لي ذكريات ومواقف معهم، ويكمل القسمان أحدهما الآخر ويضيئه، في ما أظن».

أتحدّث عن سامي مهدي السياسي، لا أتحدّث عنه كشاعرٍ مبدع وكاتب موهوب. حين أقرأ بعضَ شعره أرى فرادةَ صوته الشعري، وأتحسّس أصداءَ غربة الشاعر وصرخةَ لوعته، وشهيقَ ألم الروح المختنقة بوجودها وزفراتها، والشعورَ العميق بمنفى الذات التائهة في العالم.كأن الكلمات في شيءٍ من شعره لا يمكن أن تتسع لكلِّ ما تستبطنه الذات، وتعيشه كتجربة وجودية. التجربة من هذا النوع عصيةٌ على أن تتكشف كيفيتُها بأيّ جنسٍ من الكلمات. مواقفُه السياسية لا تشبه بعضَ قصائده، لم تكن مواقفُ كاتب «شاعر في حياة» السياسية استثناءً أو شاذة في العراق وغيره. فلاسفة كبار وكتّاب وشعراء من أمثاله تورطوا في الدفاع عن أنظمةٍ قمعية وحكام يضطهدون الأحرار. نذكر مثالًا واحدًا لهؤلاء أورده عبد الرحمن بدوي، وهو الفيلسوف الشهير فرانسيس بيكون «1561 ـ 1626» الذي كان (صديقًا حميمًا لايرل اسكس، وسعى هذا بقوة ومثابرة لتوفير منصب رفيع لبيكون، وكان ايرل اسكس مقربا الى الملكة، لكن الملكة رفضت تعيينه في المنصب... وعوّضه ايرل اسكس بأن منحه احدى ضياعه، لكن حدث بعد ذلك بسنوات قليلة أن فقد ايرل اسكس حظوته لدى الملكة اليصابت، واتُهم أسكس بالخيانة. أتدري بمن استعانت الملكة لتبرير الاتهام؟ ببيكون نفسه، ضد ولي نعمته وصديقه الحميم ايرل اسكس! لقد استدعت الملكة بيكون وطلبت منه اعداد صحيفة الاتهام ضد اسكس، فحاول بيكون في أول الأمر أن يعقد مصالحة بين الملكة واسكس لكن لم تفلح محاولته، وأطاع الملكة فيما أمرته به، بل اجتهد في تلمس الحجج وكيل الاتهامات لصديقه وولي نعمته، ولما

قدم اسكس للمحاكمة تولى بيكون نفسه مهمة المدعي العام، وكان أعرف الناس بخبايا صديقه، فحكم على ايرل اسكس بالاعدام ونفذ الحكم)[1].

قرأتُ سيرة سامي مهدي من الغلاف إلى الغلاف بشغفٍ كعادتي في قراءة كتب المذكرات والسير الذاتية.كتب هذا الشاعرُ سيرتَه بصيغةٍ خارجة عن السياق الزمني الرتيب للأحداث، لم يتقَّيد بأزمنةٍ ولا أمكنةٍ ولا مراحل عمرية. جذبتني لغتُه في الكتابة البعيدة عن التكلّف والاعوجاج، كان نثرُه طريا كأنه حكواتي ينسج حكاياتِه بسردٍ سهل ممتنع، يتقن الإنشاءَ بشكلٍ يخلو من الصناعة والافتعال، يكتب بلغة الحياة اليومية، كما يكتب الشاعرُ الشهير تي. إس. إليوت. من منظورٍ شعري محض، كان سامي مهدي متفرّدًا في شيءٍ من قصائده، لغتُه المنسابة كموسيقى؛ صورُه الأخّاذة، وشحنةُ الشجن المرهف أيضًا، ولو استقام مع حياة المعاني الزاخرة لترك إرثًا، لا قيمةَ بعده لافتتاحيات صحف المجد الزائف، ولا لخطابات مديح الهباء. أغلبُ نماذج النوم على سرير السلطة، لم تقترب من الشعر. سماءُ الشعر زرقاء وأرضُه بلون الماء، وبين السماء والماء امتدت تجاربُ الشعراء من دون أن ترتكب مجزرةَ التدنيس بالدم. هذه وقائع الشعريين والشعوريين التي كانت ردمًا لا يخلطهم بذوي المواهب، ولكنّ شعريي وشعوريي السلطة الغاشمة المتأخرين أسقطوا حصانةَ الروح المرهفة بلا ندم. تحت تأثير المواقع المتقدّمة، تراجع سامي مهدي مُبكراً عن ضفة الحياد الشعري. لم

(1) موسوعة الفلسفة ج1: ص 393، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

يكن لموهبته الشعريّة حضورٌ يقلّل من تمادي سلطة صدام بالقتل والفتك، وفقدَ مع غبار الحروب آخرَ مَلَكات الحريّة تجاه صداقات الأدب والثقافة.

لا أنكر حماسي لقراءة كتاب «شاعر في حياة»، غير أن هذا الحماسَ بدأ يخبو كلّما توغلتُ في قراءة صفحات الكتاب إلى أن شعرتُ بخيبةٍ مريرة بعد الفراغ من مطالعته. أكملتُ قراءةَ الكتاب سريعًا، وشعرتُ أن الكاتبَ يستغفل القارئَ بعد أن أسقط من تاريخه الشخصي كلَّ شيءٍ يتصل بالانتماء لحزب حكم العراق سنوات مريرة، وتشبّثه بأيديولوجيا البعث الصدامي حتى آخر يومٍ في حياته، إذ كان حاضرًا بفاعليةٍ في مؤسسات السلطة الإعلاميةِ والثقافية. اندهشتُ من عجزِ هذا الشاعر الذي ينتمي للحداثة الشعرية عن الاعترافِ بأيِّ خطأ في حياته الحزبية في صفوف البعث، وتجاهلِه أية جريمةٍ ارتكبها حزبُه في حكم العراق. حجب سامي مهدي من كتابه كلَّ شيءٍ له صلةٌ بذلك من قريب أو بعيد. «شاعر في حياة» نموذجٌ لشيزوفرينيا ثقافية مارسها كتابٌ مشاهير التقتْ في نصوصهم الأضداد.كتابٌ يتلمس القارئُ الذكي فيه كيف تختفي النزعةُ الفاشية خلفَ قناع الحداثة الأدبية. استبدَّ بضمير هذا الشاعر الانتماءُ لأيديولوجيا البعث، وأفقده القدرةَ على ذكر أيّ شيءٍ ولو عابر من خطايا نظام البعث الصدامي بحقِّ الشعب العراقي. حاول الكاتبُ ممارسةَ خدعة تمويهٍ تخفي تاريخَه الحزبي عن أولئك الذين لا يعرفونه من قراء الجيل الجديد في العراق.كأنه لم يكن يعرفُ ولائمَ الذبح الصدامية لرفاقه، كمجزرة قاعة الخلد في 22 تموز 1979 بعد

6 أيام من رئاسته، ومجازرِ المواطنين الأحرار في العراق، وكأنه لم يكن شاهدًا ومسؤولًا ثقافيًا وإعلاميًا في محطاتٍ متنوعة من مسيرة حزب البعث ونظامه، ولا يرى شيئًا من مذابح صدام وفاشيته المتوحشة. لم يُصدر الشاعرُ كتابَه في زمن صدام كي نلتمس له العذر، أصدر الكتابَ بعد 15 سنة من سقوط نظامه، وبعد 12 سنة تقريبًا من إعدامه.

بعد احتلال صدام للكويت عقد اجتماعًا لكبار المسؤولين في الدولة، وكان (يدعو القوات المسلحة إلى عدم الانسحاب من الكويت بأي صورة: «حتى لو أتاكم كتابٌ موقعٌ من قبل صدام حسين يأمركم فيه بالانسحاب فلا تفعلوا»... رفع الشاعر سامي مهدي ذراعه طالبًا الإذن بالكلام، وأذن له الكائن الأدرى الأعلى، صدام حسين. قال: «وماذا يا سيادة الرئيس لو أن الأعداء قاموا بترتيب تصويري كاذب لسيادتكم وأنتم تأمرون الجيش بالانسحاب!»)[1]. يتغنى سامي مهدي بصدام في قصيدة له بعنوان «ولصدام المحبة»، يقول فيها:

«حبنا هو هذا الكثير الكثير القليلُ

حبنا السهلُ والصعب، والممكن المستحيل

هو أجمل ما عندنا

وهو أثمن ما عندنا

(1) حيدر المحسن، جنازة سرية لشاعر، جريدة القدس العربي، الصادرة في 11 سبتمبر 2022.

وهو ما أدخرته القلوبُ لصدام

منذ بدأنا الطريق الطويل»[1].

أيامُ الحصار المرير المفروض على الشعب العراقي يواصلُ سامي صناعةَ الاسطورة فيكتب افتتاحياتٍ لجريدة الثورة بعناوين، مثل: «القائد صدام حسين جدد شباب البعث»، للعدد 9233 بتاريخ 28 ـ 4 ـ 1997. أورد مؤلفُ «معجم كتاب وأدباء ومؤلفي أم المعارك الخالدة 1990 ـ 1998»[2] لسامي مهدي 258 مقالة في هذه السنوات[3]، أكثرُها افتتاحيات لجريدة الثورة يمجِّد فيها صدامَ ونظامَه وأم المعارك وحروبه الطائشة. يتجاهل سامي كلَّ جرائم صدام ومذابحه، ويغضّ النظرَ عن حماقتِه الشنيعة باحتلال الكويت، ومأساةِ الجيش العراقي الذي فرض عليه صدامُ البقاءَ في الكويت مهما كلَّفه ذلك، ثم دعاه لانسحابٍ مذلّ انتهى إلى مذابح مريعة بطائرات وصواريخ ومدرعات التحالف الدولي، بعد أن رفض صدام كلَّ مبادرات الدول العربية وغيرها بالانسحاب السلمي، وكلف هذا الطيش الشعب العراقي اثنين وخمسين مليارًا وأربعمائة مليون دولار تعويضات عن حماقة احتلال صدام للكويت. وكان «آخر منصب شغله هو رئاسة مؤسسة الثورة للإعلام، وعندما أسقط الجنود الأمريكيون تمثاَل صدام حسين يومَ الأربعاء الموافق

---

(1) سامي مهدي، بريد القارات، ص 129، 1989، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

(2) هذا المعجم يتضمن استقراءً واسعًا لمن كتب بتمجيدِ صدام وجرائمِه وحروبِه العبثية.

(3) عدنان رشيد الجبوري، معجم كتاب وأدباء ومؤلفي أم المعارك الخالدة 1990 ـ 1998، ج3: ص 719 ـ 740، 2000، دار الكتب والوثائق، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد.

9 نيسان/ إبريل، كانت افتتاحيةُ الجريدة الناطقة باسم حزب البعث الحاكم، التي صدرتْ فجر يوم الثلاثاء 8 إبريل، تحمل توقيعَ سامي مهدي»[1].

في شهادته حول شعراء الستينات و«نقد البيان الشعري» يصوّر الشاعر عبد الكريم كاصد موقفًا مثيرًا لسامي مهدي، حين كان ومجموعة من أصدقائه في جلسة مرح وابتهاج، استفزه ذلك وهو يجلس قربهم، يكتب كاصد: (سامي مهدي أغاظه ما رآه من فسحة فرح منحتها لنا سلطته الجادة الدموية المتجهمة، لأنّ مكاننا الحقيقي هو السجن، أو المنفى، «وهذا ما تحقق فيما بعد بأسوأ مما قبل»، وليس موائد الفرح: فجأةً بحركة همجية شرسة مباغتة قطع ضحكنا بعرض ساعته ليرينا إياها معلنًا: إنها ساعة سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي سلام عادل الذي عُذِّب تعذيبًا وحشيًا لا سابقة له. قال له الصديق الراحل جعفر موسى هذا يعني أنك كنت تمارس دور الجلاد معه. أجابه: كنت حاضرًا التعذيب ولم أمارسه. رد عليه جعفر بل مارسته. ليلة ليلاء لا تُنسى، وجلسة عرس ارتدت حدادها منذ اللحظة الأولى... الجلاد الذي مرّ ذكره، والذي قدم عذرًا أسوأ من فعلته، وهو حضوره ليشهد الصلب أو التصليب أو المذبحة، أو سمّها ما شئت: إنسان معلّق بمروحة سملوا حتى عينيه، فلم يقو حتى على الأنين. كيف لشاعر أن يستمرئ رؤية مثل هذا المشهد المريع! ولم يكتف بما

(1) حيدر المحسن، جنازة سرية لشاعر، جريدة القدس العربي، الصادرة في 11 سبتمبر 2022.

فعله أو رآه باعتباره فرجة دموية نادرة، وإن تكررت في أقبيتهم، بل وفي المنازل والشوارع والساحات. لا لم يكتف حتى بتذكره. إنه يستدعيه ويستعيده ملتذًا، علنًا أمام الجميع، في أي مناسبة تسنح له ملوحًا بساعته، مفتخرًا رغم مرور السنوات التي تبدو أنها مرت بالنسبة إليه سراعًا، وكأنها ساعاتٌ تلوّنتْ بالنصر، واستعادة النصر ثانيةً، وثالثةً، وهكذا هم بالفعل)[1]. لا أعرفُ سامي مهدي عندما كنتُ في العراق، ولم أتعرف عليه بعد عودتي، سألتُ أصدقاءَ له عن قصة سلبه لساعة سلام عادل، فقالوا: إن سامي ينكر ذلك.

التماهي مع آلة الفتك والتدمير، أسكر سامي الشاعر، فلم يتخفّف من أردية الدم الحمراء حتى الرمق الأخير من حياته، ولو من أجل الشعر نفسه. لا أظن سامي، الإنسانَ الشعريّ، سيخلف سامي السياسي، مهما كان تاريخ الفرادات نديًّا. هذه هي الخسارةُ المرئية والثابتة، خسارةُ الأدب والثقافة والإلهامات. حسناتُ سامي مهدي الشعريّة، سيئاتُ سامي مهدي الشعوريّة؛ حسناتُ وسيئاتُ كلِّ أحدٍ وكلِّ نظام سياسي، لن تنفي، لاحقًا، أن سامي عاش سنوات عديدة ومديدة حرًّا وطليقًا لدرجة لا تُصدق بعد سقوط صدام، تحت ظلال التغيير السياسي الذي جرف نظامَه الديكتاتوري. لكنه، مرّة أخرى، لم يكن يرى حتى هذا الفارقَ المبسّط.

عندما فرغتُ من مطالعة كتاب «شاعر في حياة» فكرت بكتابة مقالٍ عن كيف يموت الضمير الأخلاقي للأديب والمثقف،

---

(1) عبد الكريم كاضم، رهان الستينات: نقد البيان الشعري، ص 40 ـ 42، 2022، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد.

وكيف يعجز عن الاعتراف والاعتذار لشعبه، وكيف يتجاهل هو وشعراءُ ومثقفون، ممن انخرطوا طوعيًا في جوقة المهرّجين لصدام ونظامه، مأساةَ المقابر الجماعية ومسالخَ البعث الصدامي. منعتني من الكتابة شيخوخةُ الرجل، ووهنُ جسده، ومرضُه، رأيتُ الإجهازَ على جريحٍ عاجز ليس من شيم الكرام. لم يعد هناك ما يمنعني اليوم من التحدّث عنه، بوصفه نموذجًا لموت الضمير الأخلاقي لعددٍ من شعراء وأدباء مازالوا يحضرون بقوةٍ في حياتنا الثقافية، ولم نقرأ اعتذارًا شجاعًا ولو بكلمةٍ واحدة من أحدٍ منهم للشعب العراقي. هذا النموذج معروضٌ للبيع في كلِّ العهود، هناك دائمًا من يقوم بمثل هذا الدور في خدمة كلِّ نظامٍ مستبدٍّ في بلادنا وغيرها، لا يصحو ضميرُ هؤلاء إلى آخر يومٍ في حياتهم. سألتُ عددًا من شعراء وأدباء وكتّاب معروفين، ممن مكثوا في العراق أيام الحروب والحصار ولم يغادروا الوطن، عن نشرِ الشعر في مديحِ صدام وتمجيدِ حروبه، والتزلفِ له ولحزبه في الكتابة، فشدّد الكلُّ على أن هؤلاء كانوا متطوعين، يطمعون بما يعطيه صدام لهم، ويتملقون له ولزبانيته. شعراء وأدباء وكتّاب كبار صمتوا، ولم يكتبوا جملةً واحدة تملقًا أو طمعًا بمال كلِّ تلك الأيام.

سجالات جيل الستينات، أو سلوكياتُ التناحر الجدليّ بين اليسار الشيوعي واليمين القومي، تركتْ آثارًا عميقة على الروح الشعريّة العراقيّة. هذه الآثارُ ستظهر بأوجه عديدة ومتناقضة جدًا. لكن يغلب على جيلها كلّه نزعةُ تمرّد، غالبًا ما أخرجتْ عددًا

مذهلًا إلى فضاء المراجعة والتغيير، الذين وُلدوا بلا هذه النزعة انتزعوا، من جانبهم، آخرَ ورقة توت من مواهبهم المبكرة.

الكتابةُ ضربٌ من امتحان الضمير الأخلاقي للكاتب، أسوأ خياناتِ الكاتب خيانةُ دماء شعبه، والتبجُّح بـ «ما ادخرته القلوبُ» من محبة لزعيم متوحش سفّاح كصدام.كما تتطلب الكتابةُ عقلًا يقظًا تتطلب أيضًا ضميرًا أخلاقيًا يقظًا، بعض الكتاب يحاولون خداعَ القراء عندما يكتبون مغالطاتٍ ومراوغاتٍ وتمويهات مفضوحة. ليس المهم أن تكون موهوبًا وحاذقًا ومتعلمًا تعليمًا جيدًا فقط، المهم أيضًا أن تمتلك وعيًا بالعالم من حولك، وتكون حكيمًا، وتمتلك ضميرًا أخلاقيًا يقظًا يحضر بفاعليةٍ حين تكتب.

- 19 -

أنا مدين لكلِّ مَن يقرأ كتاباتي

بعض الكتّاب يريد من الآخرين أن يصفقوا له، بلا أن يعترف أو يحترم أو يحتفي بمنجز أحد. أعرف كتّابًا يغارون غيرةً عنيفة من الشباب الموهوبين. عندما يطلب كاتبٌ ناشئ منهم رأيًا بنصوصه، يتعاملون معه بغطرسة وازدراء، وأحيانًا يسمعونه كلماتٍ مميتة، ربما تقتل موهبتَه في مهدها. شكا لي شابٌ مبدع يكتب نصوصًا مضيئة من كاتبٍ محترِف يثق بخبرته بعث له أحدَ نصوصه، فقال له بعد أن قرأه: هذا مكانُه سلة النفايات. يقول هذا الشاب كانت الكلمةُ سهمًا فتاكًا جرح قلبي. وفي أحد المرات قدم شابٌ مقالًا لكاتب فرمى أوراق المقال بوجهه، قبل أن يقرأه، ونهره بعنف، وقد هرب الشاب مذعورًا وهو يحترق في داخله كتنور. لا أتحدث عن النقد بمعناه الأدبي والثقافي والعلمي، ولا أتحدث عن خداع مَن لا يعرف الكتابة، ويصرّ على إقحام نفسه في هذه المهمة الوعرة، بلا موهبة، ولا صبر طويل، ولا تمارين مرهقة، ولا تكوين في الحقل الذي يكتب فيه، ولا ثقافة غنية. أتحدث عن الغيرة المرضية، والغطرسة، والاستهزاء والازدراء والعنف اللفظي الذي يصدر من كتّاب يراهم مَن يطلب رأيَهم خبراء. قلّما تعرفت على كتّاب في مجتمعنا يمتلكون روحًا أبوية حانية، يبادرون بالعطاء والرعاية لذوي

المواهب من الجيل الجديد. الإنسانُ بطبيعته يطلبُ الاعترافَ والدعمَ الذي يحفّزه على العمل والإنجاز. الشبابُ خاصة بحاجة شديدة للدعم العاطفي والرعاية والتحفيز، الاستثمارُ في إيقاظ عقول الشباب ورعايتهم عاطفيًا استثمارٌ في إيقاد طاقة الإبداع والتجديد الخلّاقة، وهو أثمنُ استثمارٍ للحاضر والمستقبل.

مِن دون قارئ يفتقر النصُ لانبعاث الحياة فيه، القراءة بقدر ما تحيي النصَ تجدده عبر الحوار النقدي للقارئ مع النص. القارئ مرآة توقظ معاني الكلمات، وتضيء ما هو مستتر من دلالاتها. الكاتب الحقيقي يستمدّ طاقتَه في الإبداع والمثابرة والاستمرار من القراء الأذكياء ذوي البصيرة المضيئة، أجمل مكافأة للكاتب أن يرى صورتَه في هؤلاء القراء. طاقتي تتجدّد لحظة يتحدث لي قراء يتذوقون طعمَ الكلمات. القارئ يكرم الكاتبَ ويحفّزه ويوقد طاقتَه عندما يستشعر ما تقوله وما تلمح إليه وما تضمره كلماتُه. الكاتب المخلص لصنعته يحاول أن يتعلّمَ من الجميع، وفي الوقت ذاته يسعى أن يكون مختلفًا يمتلك صوتَه الخاص، لا أن يكون صدىً لغيره. يتعلّمُ من القراء المتسائلين وحتى المشاكسين أكثر مما يتعلّمُ من القراء المنحازين مسبقًا لكتابته. أقرأ تعليقات متنوعة بعد نشر ما أكتب، مَن يمتدح كتابتي يفرحني ويعزّز ثقتي بجهدي، خاصة وأنا قبل غيري لا أثق دائمًا فيها، إلا أنه لا يضيف لي ولا أتعلّم منه شيئًا، ولا يدعوني للتريّث وتمحيص ما أكتب. أحيانًا تكون تلك التعليقات نقدًا لاذعًا، وربما تضمن شيءٌ منها كلماتِ احتجاج منفعلة قاسية تخرج عن النقد العلمي، ولا تخلو من تجريح أو تحريض ضدي. أعترف أني تعلّمت من هؤلاء

النقّاد القساة ما لم أتعلمه ممن مدحوا كتاباتي. وإن كانت تعليقاتُهم تزعجني، إلا أنها كانت ومازالت حوافزَ تستفزني وتوقظني لأن أكون أشدَّ حرصًا ومثابرة على غربلة نصوصي وتدقيقها والتأمل فيها أكثر من مرة قبل نشرها. هذا الصنف من القراء يسهمون بإنضاجِ كتاباتك عبر تحديها، وحتى التحريض عليها. التحدي يرسخ كفاءةَ دفاعات الإنسان، ويستحثّه على مراكمةِ جهوده وتكثيفِها، والعملِ على ابتكار أدواته وتعزيزها.

أشعر بمسؤولية أخلاقية حيال القراء الكرام، أنا مدين لكلِّ مَن يقرأ كتاباتي، لا أستطيع وفاءَ هذه المديونية الكبيرة إلا ببذل كلِّ طاقتي، والإخلاصِ لهؤلاء القراء وأمثالهم في كلِّ كلمة أكتبها. لستُ مستعدّاً للتنازل عن ضميري الأخلاقي، يقظةُ ضمير الكاتب تحميه من خيانةِ نفسه والقراء، والجنايةِ على عقله وعقولهم. تنازل الكاتب عن أخلاقه على مراتب، الحدُّ الأدنى يتمثل في إدمان المراوغة والتمويه في اللغة لتضليل القراء. الإخلاص للقارئ يعني إثارةَ عقله النقدي، ومحاولةَ استنطاق ما هو صامت في تفكيره، وتدريبَه على طرح أسئلة كبرى، والابتعادَ عن تلقينه كلَّ شيء كالببغاء.

يراسلني بعضُ طلاب الماجستير والدكتوراه يطلبون أن أقترحَ عليهم عنوانًا، وبعد اقتراح العنوان يطلب بعضُهم أن أدّله على كلِّ شيء، وأفعل كلَّ شيء نيابةً عنه، أكثرُهم يريد وضعَ الخطة نيابة عنه، وإعدادَ لائحة المراجع، وتحريرَ ما يكتب، وتتمادى طلبات جماعة منهم فيريد الكتابة نيابة عنه، أرفض حتى وضع الخطة لطلابي فضلًا عن غيرهم. بعضُ الناس يريدُك أن تقودَه كالأعمى، وأنا أرفض التقليد الأعمى، تتلخص

مهمتي بالعملِ على تقويض الأغلال الراسخة في الذهن، وتحريرِ العقل من أصنامه ما أمكنني ذلك.

الإخلاص للقراء في الكتابة يعني طرحَ ما يستحثُّ العقلَ على التفكيرِ بموازاة الكتابة وضدّها، والانتقالَ بالتفكير خارج الأسوار المغلقة. لا تتجلى قيمةُ الكتابة بمقدار ما تنتجُه من إجاباتٍ جديدة فقط، ولا بما تكرّره من كلمات جاهزة. قيمةُ الكتابة في براعتِها بوضعِ عقل القارئ أمامَ مشكلاتٍ عميقة يتطلب الخوضُ فيها كثيرًا من التأمل والنظر غير المتعجِّل. لا يجد القارئ الذكي عقلَه في بعضِ إجابات المؤلِّفين وآرائهم، بل يجده غالبًا فيما يحرضه على التفكيرِ المختلف، ويستحثّه على توليدِ أسئلةٍ موازية لأسئلةٍ كانت تشغله زمنًا طويلًا. الكتابة لا تنتهي وتبلغ مدياتِها القصوى في أيِّ حقل يفكر فيه الإنسانُ ويتأمله بدقة وعمق، الكتابة يغذّيها القراء الأذكياء مثلما تغذّيهم.

تطورُ أيّ علم لم ينجزه تراكمُ المعلومات، بل أنجزه: تكذيبُ كثيرٍ من المسلّمات، وفضحُ الأخطاء، وتوالدُ الأسئلة العميقة، واتساعُ علم الانسان بالتدريج بجهله، وإدراكُ أن مجهولاتِه لا حدودَ لها. التراكمُ الكمي للمعلومات لا ينتج علمًا، العلمُ هو الفهمُ الصحيح والاكتشافُ والابتكار الخلّاق، وتوالد الكلي من الجزئي، وتوالد الأسئلة من الأجوبة، ولا ينجز ذلك عقلٌ مكبّل بمسلّمات غير منطقية، وبداهاتٍ ليست بديهية، وتفسيراتٍ لا عقلانية.كل علم يتوقف عن إنتاج الأسئلة يتعذر تجديده وتطوره. لا جوابَ بلا سؤال، كلما كان السؤال أعمق يمكن أن ينتج جوابًا أعمق. تتسع المعرفة وتتعمق باتساع آفاق الأسئلة وتخطيها للمألوف.

لا أظن الفهمَ المبسط للقول الشائع: بعض العلوم «نضج واحترق»[1] دقيقًا. يمكن أن يكون القصدُ في ما أفاده البحث من منهجٍ معين وطريقةٍ محدّدة ونوعٍ خاص من الفهم في أحد العلوم، وإلاّ فكلّ علم ينفتح على إمكانات بحث متجدّدة تبعاً لتجدّدِ نوعِ المناهج وطرائقِ التفكير في قضاياه، وانبثاقِ أسئلة لم تكن حاضرةً في الذهن، واستثمارِ ما هو مسكوت عنه ومنسيّ أو مهمل أو محظُور في عقل المشتغِل بهذا العلم. لا يتطور العلمُ ولا تحدث فيه منعطفاتٌ إن كان المشتغِل بالعلم يظن أن من سبقه أدرك الحقيقة، وتعرّف على كل وجوهها، واكتشف كلَّ الطرق المؤدية إليها، ولا جديد يقوله هو أو غيره في أية مسألة. العلم تراكمي يتطور بتصويبِ أخطائه على الدوام، واختبارِ معطياته الموروثة، وتجديدِ أسئلته، وانفتاحِه وتفاعله مع العلوم الأخرى، وتوظيفِ ما يمكن توظيفه من أدواتها ومناهجها ومفاهيمها في إطار مباحثه.

رأيت متحدثاً تلفزيونياً يطلق أحكامًا نهائية فيقول: «إن كلَّ النظريات في علم اللغة الحديث قالها ابنُ جني، وهي معروفة في آثاره». يتكرّر مثلُ هذا الكلام في الحديث عن الفلسفة والعلوم الإنسانية الحديثة وغيرها، ويُعبّر عن هذه القناعات بأساليب متنوعة كلُّ أولئك الذين لا يستطيعون التفكيرَ خارج فضاء الهوية وأحلامها

(1) «العلوم ثلاثة: علم نضج وما احترق وهو علم الأصول والنحو، وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث». الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي في: المنثور في القواعد الفقهية، حققه: د تيسير فائق أحمد محمود، راجعه: د عبد الستار أبو غدة، ج1: ص72، ط2، 1985، وزارة الأوقاف الكويتية.

وأمانيها ورغباتها. لا يمكن إنكارُ كون ابن جني رائدًا سبق عصرَه في هذا الحقل، إلا أن هذا الرجل الفذّ وأمثاله حلقةٌ في رحلة اكتشاف أبدية تضيف وتحذف، لا تتوقف عند نهايات مغلقة، ولا تمتلك القولَ الأخير في هذا العلم أو غيره.كلُّ علم بشري غير مكتمل، العلمُ مهما كان مرآةٌ لنقص الإنسان. لم تكتمل الفيزياء الحديثة عند نيوتن، ولا علم النفس عند فرويد أو يونغ أو ادلر أو لاكان، ولا الفلسفة عند بيكون أو ديكارت أو كانط أو هيغل. لم يبدأ علم اللغة مع ابن جني، ولن يتعطل عند زمن ابن جني أو غيره مهما كان عبقريًا. ليس هناك فيلسوف أو مفكر أو كاتب، مهما كان نبوغه يبدأ وينتهي معه أيُّ علم أو معرفة بشرية. علم اللغة من العلوم الحيّة،كلُّ علم حيّ بابُ البحث فيه مفتوح لا ينغلق، انفتحت اللغة في العصر الحديث على مداخل متنوعة، وتفاعلت مع مختلف معطيات العلوم والمعارف. بحوث علم اللغة اليوم تتفاعل وتؤثر وتتأثر بالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا وعلم الأعصاب وعلم الجينات، والذكاء الاصطناعي، وغير ذلك.

القراءة النقدية للقارئ الذكي رافد أساسي يثري الكاتبَ، ويفرض عليه الإخلاصَ للقراء، ويضيء للكاتب ما هو معتم من تفكيره، ويكشف له الواهنَ من آرائه، ويمدّ الكاتبَ وتفكيرَه بشيء من إكسير الحياة، بعد أن يكرّس حضورَ كتابته وفاعليتها.كلُّ كتاب خارج القراءة والمراجعة والنقد تحذفه ذاكرةُ الكتابة بالتدريج. لا قيمةَ لكتابٍ يكرّر ما هو مكرّر في لغته وأفكاره، ولا ينتج أسئلةً وجدلًا. لا قيمةَ لأفكار تنسخ الموروثَ والمتداولَ والمألوف وتمجده. كما لا أثر لكلمةٍ ولدت بعد

فوات أوانها، ولا فاعلية لكلمةٍ تولد قبل وقتها. الكاتبُ الحاذق يعرف أن لكلِّ كتابة أجلًا لحضورها وفاعليتها. كلُّ كلمة تولد قبل وقتها تختنق بما يحيط صاحبَها من ضجيج مَن يستهجنها، وربما لا تجد من ينصت إليها. إلا أن ذلك لا يعفي الكاتبَ من إعلانها بلغة عقلانية غير مستفزّة، لعله يرى وهو حيّ لحظةَ فاعليتها، وتسابقَ الناس للإعلان عنها، وادعاء السبق بقولها.

الحجر الذي يكسر صمتَ البركة يحدث ضجيجاً، الكتابُ الحقيقي يكتبُ تاريخَه الخاص، امتلاكُ المؤلف للكتاب ينتهي لحظةَ انتقاله للقراء، ولا يعود باستطاعته التحكمُ بمصائره التي تفرضها سياقاتُ تلقي القراء ومواقفُهم المضادّة أو المتفقة معه. كلُّ كتابٍ يبدأ تاريخُه منذ قراءة القارئ الأول له. يحكي لنا تاريخُ الكتابة أن المواقفَ المضادّة لأيّ كتاب تكرّس حضورَه وتمنحه عمراً طويلاً، وربما خلّدته، في حين ليس للمواقف المتفقة مع الكتاب مثلُ هذا الأثر. ثمة كتب محظوظة يتلقاها الناشرون والقراء باحتفاء أكبر من قيمتها الحقيقية، وثمة كتب على الرغم من أهميتها الفائقة تظل مجهولة، فتلبث سنوات خارج التداول. أكثرُ الكتاباتِ تحتمي بهالة اسم كاتبها وضجيج القراء غير الخبراء من حوله، ثم لحظة يموت الكاتبُ تنكشفُ أعماله للقراء، فيختبر القراء قدرتها لتدافع عن نفسها في حلبة الصراع، وطالما فضح الناقدُ الخبير مواطنَ ضعفها وقوتها، وثغراتِها ورصانتِها، وقدرةَ كلماتها وأفكارها على البقاء برغم ما تتلقاه من نقد، وأحيانًا تصدر مواقفُ انتقام عدوانية لئيمة من كاتبها وهو في قبره.

للكتب الجادّة حياةٌ يتحكمُ في مآلاتها القرّاءُ والنقّادُ، وتحدّد

أعمارَها ومصيرَها مواقفُهم وانطباعاتُهم، ونوعُ تلقيهم لمضمونها، وكيفيةُ قراءتهم لنصوصها. القارئ المحترف تقوده متعة الدهشة للظفر بالكتب الثمينة، فهو مَنْ ينبغي أن يكتشفَها لا أن يقوده غيرُهُ وهو لا يدري أين الطريق. يمتلك القرّاءُ مصائر الكتب بعد قراءتها، ربما تدخلُ بعضُ الكتب كهوفَ النسيان بعد صدورها مباشرةً على الرغم من أهميتها، ثم يأتي مَنْ يُخرِجها من الظلام ويسلّط الضوءَ عليها بعدَ مدة، وربما يتلقى القراءُ كتبًا أخرى لحظةَ صدورها بثقةٍ واهتمام، مع أنها ليست ذاتَ قيمة علمية. لا يمكث من الكلمات إلا ما يتواصل تأثيرُه في القراء، ويمتلك إمكانات مقاومة وتحدٍ في غياب كاتبه.

- 20 -

الرهان على الكتابة اليوم

الكتابة وحدها لا تكفي لتغيير مجتمعاتنا اليوم. يصعب جدًا، وأحيانًا يتعذر، تغيير عادات وأعراف وتقاليد وقيم راسخة، تجذرت منذ قرون بعيدة، ومازالت تتغذى بثقافة شعرية للنخبة، وتقاليد متحجرة تعود للعصر العثماني للقبيلة، ومفاهيم متشددة لبعض رجال الدين، وسلطات سياسية وعسكرية ودينية وعشائرية توظفها بغية تشديد قبضتها على المجتمع. نحتاج اليوم إلى بناء استراتيجية تربوية وتعليمية علمية في إطار خطة تنمية شاملة، يتولاها خبراء في علم النفس والاجتماع والتربية والتعليم والذكاء الاصطناعي، وغير ذلك من معطيات العلوم وتكنوجيات التربية والتعليم الجديدة.

سألني أحدُ الكتّاب الأصدقاء الأعزاء: لماذا لا تكتب للجماهير؟ نحتاج كتابةً تصنع الرأيَ العام، وتغيّر المجتمع، وتقضي على التخلف، وتنقلنا إلى مرتبة الدول المتقدمة، علينا النزول إلى الميدان، علينا أن نكون ثوارًا في كتاباتنا، نحن في معركةٍ تتطلب شجاعةَ التحدي والصمود والمواجهة والمغامرة، على الكاتب أن يكون كالعقائدي المؤمن بقضيته المتحمّس للقتال في المعركة. قلت له: ما أقوله دائماً بأني لست وصيًّا على أيّ أحد، أحاول التحرّرَ

من الوصايات، وتحرير الناس من لَبس وصايتي. تنشدُ كتاباتي تغييرَ ذاتي ومنحها معنى قبل كلِّ شيء آخر، لا أنفي تأثير الكتابة الجادة في حياة الإنسان، غير أن أثرها اليوم بتغيير المجتمعات محدودٌ جدًا. منذ سنوات طويلة هجرتُ الكتابةَ التبشيرية، عندما أدركتُ حاجتي الشديدة لتفسير ذاتي والإنسان والعالم من حولي وتغييرها قبلَ أن أبدأ بتغيير المجتمع. لا تصنع الرأيَ العام اليوم وتغيّر المجتمعَ اليوم الكتاباتُ التعبوية، والحلول المبسطة، والأمنياتُ والشعارات والأحلام الرومانسية. معادلات التغيير الاجتماعي التقليدية تبدّلت، عندما تتغير وسائل التأثير ويتغير نمطُ التكنولوجيا يتغير معهما نمطُ وجود الإنسان في العالم، وتصير الحياةُ أشدَّ تعقيدًا، والواقعُ أكثرَ تركيبًا، وتتراجع قدرةُ الإنسان على كبحِ التحول وترشيدِ مساراته، وربما يبلغ التحول درجةً ينفلت فيها الواقع، ولا يعود الإنسانُ قادرًا على تشكيل خرائطه الأيديولوجية ومعتقداته ورؤاه. لست أنا وأنت ولا غيرنا من الكتّاب مَن يحرّك التاريخَ ويغيّر الناسَ اليوم ويوجّه بوصلة مصير مجتمعنا. ما يغيّر الناسَ هي تكنولوجيا المعلومات والذكاءُ الاصطناعي والروبوتات، والهندسةُ الجينية، ومعطياتُ التكنولوجيا الجديدة في هذا المجال وغيره، والتغيّرُ المناخي، والسياساتُ البراغماتية، والحروبُ العبثية، والكوارثُ الطبيعية والزلازل، والأوبئةُ المباغِتة. يجد الإنسانُ الحاذقُ الذي يواكب الواقعَ بدقة نفسَه غارقًا بتحولات عميقة تعصف به كإعصار، وكأنه يسبح في تيارِ شلّالٍ متدفق، لا يهدأ، ولا يعرف إلى أين هو ذاهب. أوضحُ مرآةٍ تنعكس فيها صورةُ هذه التحولات هو تطبيق ChatGPT

الجديد وشقيقاته، الذي ظهر نهاية سنة 2022، ووصفه بيل غيتس المؤسّس المشارك لشركة (Microsoft) بقوله: «إن برنامج الذكاء الاصطناعي (ChatGPT) له نفس أهمية اختراع الإنترنت، كما قال لصحيفة (Handelsblatt) اليومية الألمانية في مقابلة نشرت مؤخراً»[1]. وقد «ذكر تقرير صادر عن بنك الاستثمار غولدمان ساكس، إن الذكاء الاصطناعي يمكن أن يحل محل ما يعادل 300 مليون وظيفة بدوام كامل خلال الفترة المقبلة... ويقول التقرير إن الذكاء الاصطناعي، القادر على إنشاء محتوى مشابه بصورة كبيرة لما ينتجه البشر، يمثل تقدما كبيرًا»[2]. ويقول كارل بينيديكت فراي، مدير مستقبل العمل في مدرسة أكسفورد مارتن بجامعة أكسفورد، لبي بي سي نيوز: «الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه هو أنه لا توجد طريقة لمعرفة عدد الوظائف التي سيتم استبدالها بالذكاء الاصطناعي... ما يفعله (ChatGPT)، على سبيل المثال، هو السماح لمزيد من الأشخاص ذوي المهارات الكتابية المتوسطة بإنتاج كتابات ومقالات»[3].

لا أريد أن أكون متشائمًا بشأن ما يعدنا به الذكاءُ الاصطناعي ولا متفائلًا. الذكاءُ الاصطناعي من دون معايير أخلاقية، وقوانين عادلة، وصرامة دولية بتنفيذها، أخشى أن يقود البشرية إلى كوارث

---

(1) (شبهه بأهمية اختراع الإنترنت... بيل غيتس يمدح «شات جي بي تي» والذكاء الاصطناعي)، قناة الجزيرة، مقال منشور بتاريخ 10 ـ 2 ـ 2023.

(2) (الذكاء الاصطناعي: تقرير يحذر من فقدان 300 مليون وظيفة في العالم مستقبلا)، بي بي سي، في 28 مارس/ آذار 2023.

(3) نفس المصدر.

مريعة. أتحدث عن قدراتنا كبشر على التكيّف مع واقعٍ ملتبس شديد التعقيد، تتحكم فيه إراداتٌ متصارعة، ورأسُمال متوحش لا يعرف إلا الربحَ العاجل، وتصنع تحولاتِه بعمق تكنولوجياتٌ جديدة وضعته على أعتاب منعطف لم تتكشف ملامحُ خريطته بعد، ولا يدري الإنسانُ مآلاتِه فيه غدًا. وذلك ما دعا المديرة العامة لليونسكو أودري أزولاي أن تقول في بيان لها: «يحتاج العالم إلى قواعد أخلاقية أقوى للذكاء الاصطناعي، وهذا هو التحدي الذي نواجهه في وقتنا الحاضر. لقد وضعت توصية اليونسكو بشأن أخلاقيات الذكاء الاصطناعي الإطار التقني المناسب»[1]. وفي سياق التحذير من آثاره الخطيرة: «وقّع مئات الخبراء العالميين، بينهم ماسك، وستيف فوزنياك المؤسس المشارك لشركة آبل دعوة للتوقف لمدة 6 أشهر عن تطوير أبحاث الذكاء الاصطناعي»[2]. هذا هو التحدي الأعظم الذي يواجه الكتّاب ولا يعود معه الرهان على الكتابة واقعيًا.

في عصرنا لم يعد لمساهمة الكتّاب سوى أثر هامشي في عملية التغيير. لا تتغير المجتمعاتُ اليوم بالكتابة ولا تغيرها الكتب. عواملُ التغيير الاجتماعي عميقة ومتشعبة ومتعددة ومتنوعة، ولا سلطةَ للكتّاب على شيء منها. منذ أن بدأتُ الكتابةَ والنشرَ لم أتوهم يومًا أن العالمَ يتغيّر على إيقاع كتاباتي، أو أن الناسَ يترقبون أن يكتمل

(1) (حذرت من «مخاطر كبيرة على البشرية».. اليونسكو تدعو الدول إلى تطبيق توصيتها بشأن الذكاء الاصطناعي)، قناة الجزيرة، مقال منشور بتاريخ 31/ 3/ 2023.
(2) نفس المصدر.

رسمُ خرائط حياتهم وطرائق عيشهم بأفكاري وكلماتي، دائمًا أعيش هاجسَ أن ما أقوله لا ينصت إليه أحد. أحيانًا يتفاقم شعوري بلا جدوى كتاباتي، ما يسعفني ويخفض ضراوةَ هذا الشعور، ويستحثّني على إنفاق وقتي يوميًا بين القراءة والكتابة وتحرير النصوص، هي الحاجةُ إلى منجزٍ يشعرني بالحضور في العالَم. لست محبطًا ولا يائسًا، مازلت أنجو بالكتابة من الخوضِ في متاهات الحياة، وحمايةِ نفسي من الاكتئاب والمحافظةِ على صحتي النفسية، بغضِّ النظر عن أصداءِ هذه الكتابات وانقسامِ مواقف القراء حيالها. ما أجنيه من مكاسب في الكتابة تدعوني للاستمرار، إذ تخفض شيئًا من قلقِ الوجود، والشعورِ المرير بضراوة الشرّ وتفشيه في الحياة، وتمنح حياتي شيئًا من المعنى. لا أتقن أيّةَ مهنة في الحياة سوى القراءة والكتابة، إن كانتا مهنة، ولا يلهمني فعلٌ في الحياة كما تلهمني القراءةُ والكتابة.

قيمة الكتابة في صدقِها بالتعبير عن الذات أولًا، وصدقِها مع القراء ثانيًا. دائمًا أكتب ما أراه صوابًا لحظة كتابته، لم أكتب يومًا ولن أكتب ما أكذب به على نفسي، أو أخون ضميري الأخلاقي، أو أضلّل القراء وأخدعهم. لا أتردّد بإعلان قناعاتي عندما تتغيّر في ضوءِ الدليلِ العقلي، وأصداءِ ما أعيشه في الواقع وانعكاسه على حياتي وحياة الناس. العقل الذي ينشغل بالتفكير والتأمل وإعادة النظر في قناعاته، وتمحيصها بامتحان الأسئلة الصعبة، لا تتصلّب قناعاتُه ولا تنغلق بشكل نهائي. الضمير يفرض على صاحبه أن يذعن لما يمليه عليه عقلُه، ولا يتردّد في إعلان ما يراه صوابًا،

ويحمي صاحبَه من أن تكذِّب رؤاه وأفكارُه ومفاهيمُه أحاديثَه وكتاباتِه ومواقفَه. لا أراهن كثيرًا على قدرة جيلي على مواكبة الواقع والإصغاء لصوت المستقبل. الواقع الذي نعيشه بحاجة لأن نكون أنا وجيلي أكثرَ شجاعة لنعلن للأبناء أن كثيرًا مما نراه من خراب أوطاننا المسؤول عنه أيديولوجياتٌ منفصلة عن الواقع، نسجها خيال أيديولوجيين مسكونين بأحلام رومانسية، ممن لا يعرفون مصالحَ أنفسهم ومجتمعاتهم وأوطانهم، وأحيانًا لا يعرفون بوضوح حتى ما يرفضونه بشدّة وإصرار عنيد.

لا يتغيّر العالمُ اليوم بكتاباتنا مهما كانت قيمتُها،كلُّ شيء من حولنا يتغيّر بعوامل عظمى خارج حدود قدراتنا. لا أجد لكتاباتي وأمثالي أثرًا ملموسًا في إنتاج هذه العوامل، وإن كان هناك تأثيرٌ في تغيير الواقع فهو محدود جدًا. نمطُ الحضور الجديد للإنسان في الوجود يدعونا إلى أن نكتشف الديناميكيةَ التي يتغيّر على وفقها العالَم، وكيف أن تحولاتِ الواقع لم تعدْ محكومةً بما كنا نعرفه من معادلات وعوامل تقليدية يتغيّر العالَم تبعًا لها. نمطُ الحضور هذا يُعاد فيه بناءُ صلة الإنسانِ بالإنسان، والأشياءِ، والمعرفةِ، والحقيقةِ، والذاكرةِ، والزمانِ والمكانِ، والماضي والحاضرِ والمستقبل، على نحو يتبدّل فيه تعريفُ مفاهيم ظلّت راسخةً في الثقافات البشرية لزمن طويل، وتحدث ولاداتٌ جديدةٌ لمصاديق وتطبيقات العدالة والحرية والأمن والسلام وغيرِها من القيم الكونية في الواقع المتجدّد، فالأمنُ المعلوماتي اليوم مثلًا هو مصداقٌ جديدٌ للأمن في أمن العالم.كذلك يتبدّل تعريفُ مفاهيم اجتماعية واقتصادية وثقافية على وفق منطق

العالم الرقمي، فالملكيةُ مثلًا تنتقل من امتلاك الأشياء المادية في نمط الإنتاج الماضي إلى امتلاك الأفكار في نمط إنتاج المعرفة، ويتبدّل تعريفُ رأسِ المال، فينتقل من رأسِ المال المادي المتمثلِ في أصول ثابتة إلى رأسِ مالٍ معرفي يتمثل في: تعليم، ومعلومات، وأفكار، ومهارات، وبرامج، وابتكار، وذكاء اصطناعي، وهندسة جينات، وأمثالها. وإعادةُ بناء صلات الإنسان بما حوله تنتهي إلى إعادةِ إنتاج نمطِ وجودِه في العالَم.

واحدةٌ من المتاعب الموجِعة في مهنتي ككاتب أني لا أثق كثيرًا بكتاباتي، كلّما أقرأ ما أكتب تهتزّ قناعتي بكلماتي. المواقف الصادرة عن قراء لا أعرفهم ولا يعرفوني، ولم ألتقِهم من قبل، تعيد لي الثقةَ بما أكتب. يرى بعضُ القراء الكرام أن هذه الكلمات تعمل على خفض القلق الوجودي الذي يعيشه الجيل الجديد خاصة. ربما يعود تأثيرُ هذه الكلمات إلى أني أكتبها بصدق وإخلاص، وأكرّر كتابتَها عدة مرات إلى أن أستنفد كلَّ طاقتي، ولعلّ ذلك ما يدعو بعضَ القراء للقول بأنهم يتذوقونها وكأنها طعامٌ شهي.

بعض الكتاب يظن أن العالمَ يتغيّر على إيقاع كتاباته، وأن كتاباتِه أهمُّ للبشرية من اكتشاف الكهرباء والسيارة والطائرة والبنسلين والانترنت وغيرها، وأبرز من يمثّل هؤلاء كتّابُ الأيديولوجيات ممن تطغى في كتاباتهم الوثوقيات، وربما لا نقرأ لديهم أيّةَ كلمة في كتاباتهم تكشف عن ظنٍّ أو لايقين أو تشكيك. أكثر الكلمات في أحاديثهم وكتاباتهم تعبّر عن ثقةٍ مفرطة وجزمٍ نهائي، وحماسٍ يصل أحيانًا درجةَ الهوس، ورفضٍ الإنصات لأية فكرة لا تنطق بما يقولونه. بعضُهم يرى نفسَه نبيًا مبعوثًا

أرسلته السماءُ لإنقاذِ البشرية. شخصياتهم صارمة، إراداتهم حازمة، وعنادهم لا ينكسر. يقينهم راسخ أبدي، مواقفهم نهائية، مهما تغيّرت الأحوال، وكذّبت الوقائعُ آراءَهم وشعاراتهم ورهاناتهم وأحلامهم. كثيرٌ من هؤلاء تحميهم هالةُ أسمائهم الكبيرة، ويلوذون بجماعات تروّج كتاباتهم بشكل واسع مهما كان مضمونُها، خاصة إن كانوا في شبابهم في حضانة أحد الأحزاب السياسية. أية محاولة لإعادة النظر في أعمالهم تُجهض قبل ولادتها، بعد أن يصنعوا اسمًا لهم يحتمون به كلَّ حياتهم، ويواصلون الكتابةَ وتكديسَ مؤلفات بلا غربلة واختبار علمي لأعمالهم.

- 21 -

الكتابة في عصر الإنترنت

في الماضي كنت أستهلك بالكتابة كميات ليست قليلة من الأقلام والأحبار والأوراق، غير أني غادرت القلم والورق منذ سنوات. وجدت قبل فترة أن مجموعة الأقلام المهجورة في مكتبتي قد تحجرت أحبارها، فألقيتها في مكب النفايات. ينحاز جيلي للورق والكتاب، ففي كل مرةٍ يجري الحديث عن المعطيات بالغة الأهمية للنشر الالكتروني، وقنواته، وأشكاله، ووفرته حد التخمة، نُصرُّ على أن الكتابَ الورقي لن يزول اليوم أو في الغد، وأن النشر الإلكتروني لا يمكن بأية حال أن يزيح ما كان ورقيًّا. منطق الواقع أشد قسوة من منطقنا الرومانسي، ومن حنيننا ووفائنا لذاكرتنا، وما ترسّب فيها من ألوان الحبر وأضواء الكتابة بالقلم الباركر وأشباهه، ونكهة الورق، وجمال المكتبات، وتناسق رفوف الكتب، والإيقاع الهادئ لحضور الكتب في فضاء المنزل. لا شيءَ يحمينا من زحف الكتابة والكتاب الإلكتروني، وليس باستطاعتنا إيقاف شلال الإنترنيت الكاسح الذي يتسلط على كلِّ شيء في حياتنا. في منازل الكتّاب، غالبًا تتبعثر الكتب بشكل فوضوي في غرف وباحات بيوتهم، المولعون بالورق كأنهم يستمعون إلى سمفونية تفيض على مشاعرهم رقّةً وهدوءًا. للكتاب بوصفه كائنًا نعيش معه ايحاء مهدّئ

لا يتحسّسه إلا أولئك المغرمون بالورق، يتعاطون معه كأنه صديق حميم، يبدّد وحشة عزلتهم، ويخفّض شيئًا من اكتئابهم، ورفيق عاطفة يبوح لهم بما لا يبوحه أقرب الخلان، ومصباح يضيء عقولهم بما لا يرونه بأي ضوء غيره، ومحطة استراحة تبدّد شعورَهم بالقرف والملل، وتكسر نمطية حياتهم ورتابة التكرار فيها. لحظة ينخرطون في حوار مع الكتاب: يحدثهم فيحدثونه، يصغون إليه فيُصغي إليهم، يناقشونه فيناقشهم، يشاكسونه فلا يمتعض منهم، يبقى على الدوام يهبهم ما يتوقعونه وما لا يتوقعونه منه، بلا أي ثمن.

أعرف جيداً أننا كائنات مشدودة بحبل وثيق لما ترسب في أعماق الذاكرة، مَن يصاحب الورق والكتاب عدة عقود من حياته، ليس بوسعه الافلات من شراك ذاكرته، غير أن ذلك كله لن يوقف صيرورة التاريخ، ولن يعطّل ما تفرضه أقدار زماننا، ولن يسمح لنا أن نلبث طويلًا مسجونين في نمط ثقافتنا المألوفة، والإصرار على سلّة أحكامنا القيمية ومعاييرنا المحلية. نحن في تحدّ يحكي انتقالًا إلى طور وجودي بديل، نشهد ارهاصاته في سياق التطورات المتسارعة للحياة. بالضرورة، سيفضي ذلك إلى تبدل أنماط حياتنا الثقافية، ووسائل تعاطينا المعارف، وعوامل إنتاج المعرفة، وانتشارها كونيًا، وليس بالضرورة أن يفضي إلى المزيد من الضياع والتيه.

المنطق العصي على التغيير للكتابة، يشدّد على محو كتابات البشر الرديئة كافة بمرور الزمان، إذ سرعان ما تختفي، مهما واكبها من إملاءات السلطة وقهرها، ومهما صاحبها من دعاية، وإنفاق رؤوس أموال لترويجها، ومساعي جماعات لإشهارها، وما تعمله من تهريج

وضوضاء. مآلات الكتابة، ومعايير اصطفاء ما هو نوعي ونموذجي من نصوص، في عصر فوضى الكتابة، وممارسة كلِّ الكتابةِ لكلّ، ربما تبدو للوهلة الأولى مستحيلة، إلا أني أظن أن تميز واصطفاء النصوص الثمينة لا يُعجِز القارئ المحترف. لا يمكن أن يحجب الظلامُ الضوءَ، ضوءُ شمعة بسيطة يفضح الظلامَ مهما كان شديد الحلكة. الشمعةُ في ركام الظلام تسفر بوضوح أشد عن شعاع نورها مما لو كانت وسط كتلة نور متوهجة.

إن كانت الكتابة تتوالد من المطالعة والتفكير، فبماذا نفسّر تدفق كلّ هذا الكم الهائل من النصوص. بعد شيوع قنوات النشر المجاني، وإتاحتها الفرصة لكلِّ مَن تغويه الكتابة والنشر، أضحى عدد الكتّاب بعدد صفحات الفيس بوك وتويتر والإنستغرام والصحف الإلكترونية والمواقع العامة والشخصية على الإنترنت. معظم هؤلاء لا علاقة له بالقراءة والكتابة بالمفهوم الاحترافي. هذه الظاهرة تعبّر عن منعطف بالغ الدلالة، يؤشر إلى انتقال البشرية كلها إلى عصرٍ ثقافيٍّ جديد. منعطف كأنه قدر ثقافي، لا يمتلك المرء حياله خيار الرفض والمقاطعة، لأنه يحيطنا من كل جانب، ويغطي كلَّ فضاءٍ في حياتنا.

حتى أولئك القلائل الذين يتعاطون معه بريبة وخوف، ويرونه ضيفًا غير مرحب به، يعرفون ألا أحد اليوم يستغني عن الإنترنت وما يقدّمه من خدمات، وما يؤمّنه من شتى احتياجات الفرد والمجتمع، وما يموج به من بحار المعارف والعلوم والفنون، مما لم يجتمع في حيز واحد، بهذا الشكل المجاني الميسر للاستخدام، مذ عرفت البشرية تداول المعارف والعلوم. إنها المرة الأولى في تاريخ الحضارة التي يخترع الانسان فيها

فضاءً افتراضياً موازياً للواقعي، ويومًا بعد يوم يحتجب وراءه الواقع. فضاء يعمل على تأمين المتطلبات البشرية، بحذف كثير من الكلف والمشقة والمعاناة والجهود المرهقة.

مثلما وفّرَ ظهورُ الكتابة بداية العصور التاريخية أرشيفًا للذاكرة البشرية، ومنعطفًا بالغ الأهمية، وهكذا كان ظهور الورق، ثم الطباعة في القرن الخامس عشر، وأضحى الإنترنت اليوم أرشيفًا هو الأثرى والأوسع للإنسان، إنه فضاء هائل لا يغادر كبيرة أو صغيرة الا أحصاها وأثبتها وحفظها بلا أن يمحوها. الإنترنت ذاكرة بديلة للذاكرة البشرية، وبوسعنا القول إنه ذاكرةٌ تمحو كلَّ ذاكرة لا تنصاع إليها، أو هو ذاكرة لا تشبه ذاكرتنا الفردية والمجتمعية. الذاكرة مقابل النسيان، الإنترنت يمحو النسيان،كلُّ شيء في حياة جيل الإنترنت يُسجَّل في ركام معلومات بلا حدود.كثيرٌ من الأطفال اليوم يبدأون في مرحلة مبكرة بمشاهدة الألعاب والأفلام وغيرها في تطبيقات اليوتيوب وغيره، أغلبهم يتعلّم نشرَ صوره ومعلوماتٍ عن حياته اليومية، وأحيانًا حياة أبويه وعائلته ومدرسته وزملائه. لا يتقيد الطفلُ بنشر أي شيء يريد، لا يفكِّر بمصير هذه الصور والمعلومات، ولا يخطر له أين تذهب بعد أن يكبرَ ويفرض عليه الواقعُ أن يتعاملَ بطريقة تضمن له العيش بلا متاعب. تختزن ذاكرةُ الإنترنت صوره، وما أودعه فيها لحظاتِ اللهو والعبث دون تفكير في العواقب. هذا الأرشيف يمكن أن يوظّف ضده في أية مرحلة عمرية، ويمسي بعض ما أودعه فيه ذلك الزمن مادةً لإدانته في مراحل حياته اللاحقة.

الذكاء الاصطناعي يضع الإنسانَ في مستقبل يحاول أن يتفلت من

خرائط مستقبل البشر، إذ يخلق عالمًا بديلًا، يحجب الماضي ويتغلب على الحاضر، وبالتدريج يسعى أن يقودنا معه، ويقحمنا في آفاقه غير الواضحة حدودها ومدياتها، وهو يعمل على محو عالمنا المألوف، واستبداله بعالم لا يشبه عالم الأمس، وأخشى ألا يشبهنا. لا شك أن الماضي عزيز على قلوبنا، وإنه يصر على فرض حضوره، لكن حضوره أمسى هشًّا في وجوده، لا يزاحم الواقع الذي يفرض حضوره المتعجل، ربما لن يلبث الماضي طويلاً. غالباً ما يحضر الماضي في ذاكرتنا جميلاً، حتى لو كان شقيًا لحظة وقوعه. هذا هو عمل الذاكرة، تشطب ما لا نحب بعد غيابه، لتحتفظ بما نحب. الحاضر الموجع ليس موجعًا إلا لحظة حضوره، لكنه طالما بزغ جميلاً لحظة غروبه.

من سمات العصر الثقافي الجديد كسر احتكار الكتابة، وتعميمها لكل أحد، وهو تحوّل بالغ الأثر في الحاضر والمستقبل. لست حانقًا أو متشائمًا أو قلقًا من هذا المنعطف المذهل، من تبدّل أنماط التعبير والإشهار والنشر، ذلك أن هذا الفضاء البديل في التمرين على الكتابة والنشر، قدر ما يتضمن من ثرثرة وهذيان وفوضى وضياع، فهو يضعنا للمرة الأولى في تحدٍّ مختلف، يختبر الكتابة الحقيقية في الرهان على تميّز حضورها، ومقدرتها على ممارسة وظيفتها في الابداع، وإعادة خلق وبناء تفكير وفكر مختلف. بموازاة ذلك ستبتكر هذه القنوات البديلة للانتشار أنماطَها المشابهة لها من النصوص، وهكذا أنماطها الخاصة من القرّاء، مثلما تُرسّخ تقاليدَ أخرى للقراءة، وأساليبَ جديدة لتلقّي المعرفة، بل لعلها تصوغ لنا مفهومها الخاص للثقافة والمثقف.

لعل الغد يفاجئنا بنحو تصبح فيه معايير الجودة والانتشار مغايرة

تمامًا لما نعرفه، مَن ينتمي إلى تقاليد الكتابة والنشر الورقي من أمثالي، يصعب عليه استيعاب ما تباغتنا به تحديات الثقافة والتثقيف والمثقف الآتية. أرى ذلك وأنا أعيش تجربة أقحمتني فيها الأجهزة اللوحية الجديدة، وهكذا استحوذت على اهتمامي الهواتف مثل «الآيفون»، وأغوتني بساطتها وفاعليتها الآنية المباشرة، وكأنها استدرجتني بما هو مودع بوجودها من تسيد نزعة رأسمالية لا تفكر إلا بالمزيد من الثراء، تفرض عليّ نفسيًا أن أهرول لألتحق بكل جيل جديد منها، وأجيالها تتوالد باضطراد مدهش. هكذا تبدلت طريقتي مع هذه الأجهزة في تلقي المعلومات وتداولها وترويجها، لأول مرة في حياتي أجد ذاتي منقادة رغمًا عني، الغريب عجزي حتى اليوم عن التحرر من هذا الضرب من الانقياد. منحتني هذه الأجهزة إمكانات مغرية للسياحة والترحال في عوالم لا يوحّدها إلا أنها تتضمن كل ما بحثتُ عنه من كتب نادرة لسنوات طويلة، ولم أعثر عليه، وآفاق فسيحة للمعرفة وبحر بمختلف المعلومات، وكل ما أود معرفته بغرض التعلّم، أو الخروج من الرتابة والملل، بحثاً عن الاستراحة والمتعة، في حالات العزلة والغياب عن المجتمع.

قبل ربع قرن تقريبًا بدأت استعمل الإنترنت خارج العراق، وفي العراق واصلت استعماله. بالتدريج تحولت كل كتاباتي ومراسلاتي، وأغلب مطالعاتي على الإنترنت.كثير من الزملاء في جيلي لم يسرقهم هذا العالم مثلما سرقني، إذ اضمحلت مطالعاتي للصحافة الورقية، ذلك أن الصحف كافة متاحة لي صباح كل يوم عبر الإنترنت.كذلك تراجعت لدي حالات العودة لمطالعة الكتاب الورقي، بعد توفّر أعداد لا حصر

لها من العناوين، وما أبحث عنه في مختلف المعارف والفنون والآداب. ولم أعد أستخدم القواميس والمعاجم والموسوعات، بعد وجود نسخها الالكترونية محمولة معي حيثما أكون، ففي كل مرة أكتب لا أحتاج إلا وقتًا ضئيلاً لمراجعة مصادر المعلومات لحظة الكتابة، للتثبت من معلومات أدرجها في سياق النص، بينما كان التثبت من معلومة فيما مضى يتطلب مني أحيانًا ساعات عديدة، وربما أيامًا من التفتيش في صفحات المراجع. أتذكر قبل سنوات كنت أحياناً أراجع كتبًا بتمامها، مثل: فهرست ابن النديم، وكشف الظنون، ومعجم المؤلفين لكحالة، والأعلام للزركلي، والذريعة للطهراني... وغيرها، بغية معرفة كتاب أو مؤلف أو معلومة معينة. عادة لا تضم مكتبتي كل ما أحتاجه في كتاباتي، فأضطر لمراجعة المكتبات العامة، أو ما تضمه خزانة كتب الأصدقاء. الظفر بكل ذلك اليوم لا يكلفني سوى استعمال مفاتيح الكمبيوتر أثناء الكتابة، ليكشف لي عاجلاً عن منجم معلومات، يقدم خيارات متعددة لكل ما أبحث عنه.

مكتبة سُر مَن قرأ

- 22 -

لا نتعلم الكتابة إلا بالكتابة

يسألني كثير من أصدقائي وتلامذتي كيف يمكنهم تعلم الكتابة، يسألون عن مجموعة القواعد والمعايير والوسائل التي تمنحهم تلك الموهبة؟ وعادة ما أجيبهم أن ليست ثمة قواعد ووسائل صارمة تقودهم إلى احتراف الكتابة، بل طالما كررت أنه «كما أن الاقتصاد سياسة مكثفة، كذلك الكتابة مطالعة مكثفة». لا يفيض الإناء دون امتلاء، من دون تراكم قراءات متنوعة ومتواصلة ليس بوسعنا أن نكتب ما هو مفيد. في القراءة علينا أن ندرك ألّا كتاب يُغني عن بقية الكتب، وأن ليس هناك كاتب تغني مطالعة آثاره عن آثار كلّ الكتّاب. الكتّاب الجيدون قرّاء جيدون، ما لم تكن قارئاً نهماً لا تكف عن ملاحقة كل ما هو مهم من إنتاج فكري وأدبي، فلا يمكنك أن تكتب ما هو هام ومميز، خاصة مطالعة ما يتصل بالمجال الذي تتمحور اهتماماتك فيه.

يمكننا العثور على أحد أهم مفاتيح دراسة تقدم اليابان في: كثافة القراءة، وشغف المجتمع بمطاردة المعلومة، وولعه المزمن باكتشاف المجهولات، وصمته المتأمل الطويل، الذي يبوح بكلام أعمق وأدق من: صخب السياسيين، وثرثرات وعاظ السلاطين، وضوضاء المعلمين، وضجيج الدارسين. علمت قبل سنوات عديدة، أن الصحافة في اليابان

توزع يومياً ما يُقارب تسعين مليون نسخة. ومن الطريف أن اليابانيين وضعوا في إحدى الساحات المعروفة، تمثالاً لرجل يمسك بكتاب، وهو يقول: «إن وزنك بعدد ما قرأت من كتب، لا بعدد الكيلوغرامات التي تمتلكها».

كلُّ كتابة جادة هي نحو من استيعاب وهضم وتركيب لبناء جديد، يتسع نسيج الكتابة لاستيعاب شيء من كتابات سابقة، مُعاد ابتكارها. الكتابة تتخلق باستمرار في صيرورة جدلية، تبتكر السابق، وتعيد خلق اللاحق. الكتب الخالدة هي خلاصة خصبة مكثفة لمكتبات كاملة، تم استيعابها وهضمها وتمثلها، وإعادة سبكها وتكوينها في مركّب مختلف، لا يَتلمّس المناهل التي استقى منها إلا أولئك الخبراء من القراء. لا أعني بذلك المحاكاة التقريرية، أو سلخ أعمال الآخرين وانتحال كتاباتهم، أو ترجمة نصوص من لغة ثانية وإعادة نسبتها، والبراعة في محو الأصول، وإخفاء آثار الانتحال والترجمة، بل أعني أن النص الجديد هو مخلوق جديد، لا يشبه منابع إلهامه، ولا يحاكي مطالعات الكاتب، أو يستنسخها ويتطابق معها. هو نحو من تفاعلِ مجموعةِ عناصرَ تنتج مركّبًا جديدًا لا يشبهها، إنها بمثابة إنتاج مركب صناعي من عدة عناصر، لا يعود يشبهها في صفاته ووظيفته، كما هو تركيب الماء من الأوكسجين والهيدروجين.

كلُّ صفحة في الكتب الخالدة تختزل ألفَ صفحة، كلُّ عبارة تختزل ألفَ عبارة، كلُّ كلمة تختزل ألفَ كلمة. لا تبدأ أية كتابة من لا شيء، ففي كل نص يرقد كثير من النصوص. في كل كتاب يتناغم كثير من الكتب. يتوالد كل نص مما يختزنه الكاتب من نصوص مسبقة. في كل

نص تتراكم نصوص عديدة متنوعة، تحيل إلى مطالعات الكاتب. كما أن قبل كلّ تفسيرٍ تفسيرا سابقا، قبل كلّ تأويلٍ تأويلٌ سابق، قبل كلّ فهمٍ فهمٌ سابق، وأيضاً قبل كلّ كتابةٍ كتابةٌ سابقة.

الكتابة بلا قراءة هي نحو من اجتراح المستحيل، إنها بمثابة من يحاول تشغيل محرك بلا وقوده الخاص. لا أنفي وجود أمثلة تفتّقت عن إبداع خلّاق في الفلسفة والأدب والفن، كان التأمل العميق منبع إلهامها الثريّ، والسياحة العقلية والروحية والعاطفية في الآفاق الظاهرة والمضمرة للذات والانسان والحياة والعالم، لكن تلك الأمثلة إنْ هي إلا انفرادات استثنائية جدًا.

للكلمات الجميلة نكهة وطعم نتذوقه، ولون مضيء نبتهج به، الكلمات لا يمنحها نكهتها العبقة وطعمها ولونها إلا ما تختزنه من تفكير صبور وتأمل عميق. الكلمات في الكتابة صوت التفكير، الكتابة بلا تفكير ليست سوى صوت طبلٍ أجوف. الكتابة بلا تفكير أسوأ أنواع الكتابة، والأسوأ منها الكتابة قبل تعلّم التفكير والتأمل. الكتابة ضرب من التفكير المزمن، والعمل المستمر على تعلّم التفكير.كثيرون في بلادنا يكتبون بلا تفكير، أو يكتبون قبل أن يتعلّموا التفكير. لا نتعلّم التفكير إلا بالتفكير. الناس بطبيعتهم ينفرون من التفكير، ومن كل ما يوقظ العقل من سباته، لذلك يفتشون على الدوام عمن يفكّر نيابة عنهم، فيعودون في كلِّ شيء يسير أو خطير في حياتهم إلى من ينوب عن عقلهم. الجبان عقله مشلول، لا طاقة لديه للتفكير، ذلك أن التفكير شجاعة، وأحيانًا تكون ضريبته موجعة، في بلادنا من يفكر بحرية لابدّ أن يكون مستعدًا للتضحية بمقامه وماله وانتمائه لجماعته وهويته، وربما

حياته أحيانًا.كما نتعلم التفكير بالتفكير، نتعلم المطالعة بالمطالعة، ونتعلم الكتابة بالكتابة، ونتعلم الرسم بالرسم. قد يكون التفكير أحيانًا ضد التفكير، ففي العقل الذرائعي يطمس العقلُ العقلَ، ويتعطّل التفكير الحر، ويختزل كلَ شيء بما لا يختزل به.

النص الحقيقي نقش على الحجر، النص البليد نقش على الرمل. لا يمكن تعلم الكتابة إلا بتمارين مرهقة في الكتابة. يقول إرنست همنغواي: «كتبت نهاية «وداعاً للسلاح»، الصفحة الأخيرة منها، تسعاً وثلاثين مرة، قبل أن أشعر بالرضا»[1]. ليس بوسع أي كاتب تعلم الكتابة إلا بإدمان الكتابة. الكتابة تمرين أبدي، وقوده المطالعة المزمنة، والتفكير المستمر، والمراجعات المتكررة، وشطب ما ينهك النص، واستبعاد ما يطفئ وهجه، والعمل على ترصين بناء الجملة، وتكثيف الدلالة بأقل ما يمكن من كلمات. الكتابة اقتصاد الألفاظ وتدبير الدلالات. الكتابة تحرير النص من عبودية الكلمات الميتة، وأساليب البيان المنقرضة.كلُّ كتابة إعادة كتابة،كلُّ كتابةٍ كتابةٌ على كتابة.

توثين اللغة ضرب من توثين الحروف ونسيان المقاصد، اللغة كائن حيّ لا تنتمي إلا للبشر. تنقرض اللغة إن لم تتناغم وروح عصرها، اللغة كائن راهن ومستقبلي، وليست ما وضعه المتكلم الأول فعقمت ولم تتوالد. اللغة ليست ما فرضته سياقات دينية وسياسية وثقافية، فتسيّدتْ منذ تدوينها وتحولت إلى سلطة على التفكير. اللغة كلمات

(1) الياسين، نايف «ترجمة وتحرير». متعة المتخيل: حوارات مع كتّاب عالميين. ص 11.

تولد وأخرى تموت،كل عصر يضيف للغة كلماته.كل عصر يحذف الكلمات التي لا تشبهه ولا تنتمي إلى نمط وجود الإنسان فيه. اللغة أساليب بيان منسوخة وأخرى ناسخة، تحرير اللغة من أغلالها تحرير العقل من أغلاله. الكلمة كائن حيّ تاريخي، تجري عليه نواميس الخلق والولادة والتطور والهرم والمرض والموت، مثلما يولد ويتطور ويهرم ويمرض ويموت كلُّ كائن حي. حين تموت الكلمات يمسي ترقب ضوء يشرق به استعمالها في الكتابة بمثابة ترقب ايقاد النار من الرماد.

جماليات الكتابة صورة كلماتها، وبراعة استعمالها في رسم العبارة، تشييد العبارة كتشييد العمارة. يضيء الكتابةَ انتقاءُ الكلمات الحيّة الحساسة، الكلمات بطبيعتها ينطفئ وهجها وما تشعه من ضوء، إثر استنزافها بإسراف في استعمال مبتذل ممل. في الكتابة الابداعية تتحدث إلينا الكلمات وكأنها أنغام عذبة، يوحّدها إيقاع موجة تتناغم فيها ألحان المعاني، ويعيش ذهننا معها الأُلفة والأُنس. في «عبث الكتابة» تنبعث أصوات موحشة، يستهجنها الذوق السليم، نشعر حيالها بالغُربة، وتستنزف الذهن بضجر ممقوت.

ليس المهم في الكتابة التكديس بل البناء، ليس المهم الكم بل الكيف، ليس المهم ما يصدر بل ماذا يصدر، ليس المهم ضوضاء النشر بل مضمون النشر. الإنتاج الفكري الأخصب في التاريخ، الذي تمثل بالفلسفة والابداع الأدبي والفني، لم يخضع لمعادلة الكم.كل ما توالد في سياق معادلة الكم، لم يمكث طويلا. الفيلسوف الألماني شوبنهاور أمضى حياته كلها في كتابة كتاب واحد، هو: «العالمُ ارادةً

وتصوراً»[1]، وهو الكتاب الذي ولد من كلماته نيتشه. يكتب نيتشه في مقالته «شوبنهاور كمعلم»، بأنه «ما إن قرأ هذا الكتاب حتى شعر بالدوار العقلي، الذي لازمه تسع سنوات، وجعل صورة العالم تتبدل أمام ناظريه»[2]. ثم فكّر فوكو في سياق نصوص نيتشه، وتناسلت في سياق تلك النصوص لاحقاً رياح عاصفة في العقل الغربي.

يُصاب بعضُ الكتّاب بادمان الكتابة، وادمان النشر لكل ما يكتب، وينشأ ذلك عادة عن هوس عاطفي، واضطراب ذهني، يغرقه في عالم متخيل يصنعه هو لذاته، كي يرضي نرجسيتَه، فيضاعف وهمُه قيمةَ وأثر منجزه عشرات أو مئات أضعاف أثره وقيمته الواقعية، متخيلاً أن القراء يترقبونه كل يوم، متلهفين لأثره الجديد، لذلك يسرف في الكتابة، ويظل على الدوام مشدوداً لحركة المطابع، إلا أنه لا يدري أن كل كتاب رديء يصدره سيمحو ما كان جيدًا، مما أنتجه من قبل. الكتابة كيفية لا تخضع لقياسات كمية مادية، لا يصبح المرء كاتبًا بغزارة انتاج الكتب، وإيهام القراء بتعدد العناوين وتكديس المجلدات.

الكتابة الخالدة كما اللوحة الخالدة، إنها بمثابة اشتغال فنان محترف برسم لوحة، فكلما كان الفنان عظيماً، لا يخبو خياله الابداعي عن خلق العناصر والرموز والثيمات الموحية في ثناياها، وتركيب المزيد من

---

(1) نشر آرتور شوبنهاور كتاب «الحواشي والبواقي»، وبعض النصوص الأخرى، إلّا أنها لم تكن سوى تنويعات وهوامش وشروح وتعليقات على متن كتابه العمدة: «العالمُ ارادةً وتصوراً».

(2) شوبنهاور، آرتور. العالمُ ارادةً وتصوراً. ترجمة وتقديم وشرح: سعيد توفيق. مراجعة: فاطمة مسعود. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2006، ج 1، ص 7.

الألوان في طبقاتها، وتكريس وقت طويل لتأملها، والعودة إلى إثراء أطيافها، بالمزيد من الدلالات والإشارات والرموز. ألم يلبث الفنان العبقري دافينشي عدة سنوات في رسم رائعته الأشهر في العالم منذ عدة قرون «الموناليزا». لقد بدأ ليوناردو دافينشي رسم الموناليزا سنة 1503 وانتهى من رسمها سنة 1510 [1].

خلود الكتابة ليس بحشد العناوين، ولا بوفرة عدد الكتب، بل بما هو مميز وأصيل فيما يُكتب. هناك حالات أشبه بالهلوسة تصيب بعض من يمارسون الكتابة الرديئة، ممن يوقفون حياتهم لتكثير العناوين بأي شكل، حتى تصل اصدارتهم أحياناً إلى مئات المجلدات، غير أنها سرعان ما تختفي، كما يختفي السراب الذي يخطف أبصار الناظرين أول وهلة.

الكاتب يعيش الحرمان من متع الحياة الاجتماعية كثيراً، بل أن الكاتب الجاد قد يبلغ من الشهرة والحضور ما هو لافت، بنحو تمسي الكتابة في حياته حرمانًا من متعه الأجمل المطالعة. الكتابة لن تتركه حتى لو تركها. القراء يشكلون ضغطا على الكاتب، ملاحقتهم المزمنة ضرب من سجن الكتّاب.

تختبئ المعاني أحيانا في الهوامش، هاربة من المتون.كثيراً ما تبوح بنكهة الكتابة المواقف والعبارات العابرة العفوية، فيما تعجز الكلمات والصياغات المنحوتة التي تحاكي أدب الجاحظ في اثارة اهتمام

(1) بدأ دا فينشي برسم اللوحة في عام 1503 م، وانتهى منها جزئياً بعد ثلاثة أو أربعة أعوام، بعد أن رسم أجزاء من اللوحة، ثم أتمّها عام 1510. ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

القارئ الجاد. الكاتب المبدع يكتب نصوصاً آسرة، تجتذب المتلقي بشدة فتوقعه فجأة في فتنتها، وسرعان ما تحرّض الرؤى المتوهجة في هذه النصوص ذهن المتلقي من جديد، ليتمرد عليها.كأن مفعول هذه النصوص يشي بدلالات متضادة، بين: جَذَب ودفع، شَدّ ونبذ. لذلك تتكفل هي أيضا تحطيم أسوارها، إن كانت تبني أسواراً، فتهشم كل أصنام الذهن، وكل الأوهام التي تفترس العقل، وتمزق ما يلتف على التفكير من شباك، وتمحو ما يسقط فيه وعي البشر من زيف.

الكاتب الحقيقي ربما يكتب كتابًا واحدًا، ما قبله تمارين، ما بعده تنويعات. الشاعر المطبوع ربما ينشد قصيدة واحدة، الرسام المبدع ربما يرسم لوحة واحدة. ما يضيفه ذلك الكاتب غالبًا تنويعات تحيل إلى ذلك الكتاب، ما يقوله الشاعر هو تنويعات تحيل إلى تلك القصيدة، ما يبتكره الرسام تلوينات على الصورة التي أبدعها.

- 24 -

مواجع الكتابة

يقول الجاحظ: «وينبغي لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلا على أنّ الناسَ كلهم له أعداء وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير فإن لابتداء الكتاب فتنة وعُجبًا فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقّفَ من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب»[1]. تردني بين حينٍ وآخر تعليقاتٌ لاذعة، لا تخلو من سخرية، يكتبها قراءٌ على هامش نصوصي. اتألم وأغضب مما يُقال أو يُكتب إن كان افتراء، لا أردّ على ما يكتب. هاتفني قبل سنوات صديقٌ فقال لي: عثرتُ على عددٍ من المجلة الفلانية صادر قبل ثلاثة أعوام، خصّص كلمةَ التحرير ضد افتتاحيتك في مجلة قضايا إسلامية معاصرة. قلتُ له: نعم أعلم، قرأتُه لحظةَ صدور المجلة، وقرأتُ افتتاحيةً بمجلة أخرى خصّصها كاتبُها للتحريض ضد قضايا إسلامية معاصرة، وتصلني على الدوام رسائل على الخاص تتضمن كلامًا جارحًا، من أشخاص يختفون خلف أسماء شبحية.

(1) دار الكتب العلمية، بيروت. الجاحظ، الحيوان، ج1: ص 60 ـ 61،

اندهش، وهو الشجاع الذي خاض بكتاباته معارك مفتوحة، فتساءل مستنكرًا: ماذا فعلت؟ أجبتُه: لن أكتب حرفًا واحدًا، على أي اتهام وتحريض مغرِض. ازدادت دهشته وتساءل: لماذا؟ أجبتُه: لا أجد عقابًا أقسى من الإهمال لمن يخرج عن أدب النقد العلمي ويسرف بالهجاء، وأقسى من الإهمال ألا تكترث بالاتهام والتحريض، وتواصل عملَك وتثابر عليه، ويتحدث المزيدُ من إنتاجك نيابة عنك للقراء. واصلتُ عملي وأخلصتُ له وثابرتُ عليه أشدّ من السابق. أعمالنا إن كانت ذاتَ قيمة تفرض حضورَها، لم تحتج لمن يتحدث ويدافع عنها. تعلمتُ من تجارب غيري أن الزمانَ يتكفل بمحو كلِّ الاتهامات والافتراءات والازدراء، ولن يبقى إلا المنجزُ إن كان قادرًا على البقاء. لستُ أولَ أو آخر كاتب يتعرض للهجاء، كلُّ كتابةٍ مشغولة ببناء معرفة تعتمد العقلَ مرجعية وتخرج على المعرفة العامية لن يهادنها مَن يدركون تأثيرها، وتهرول إليها أبواق مَن لا يقرأون ولا يكتبون، ويُستدرجون إلى معارك ليست معاركهم. المنجز النوعي مزودٌ بإمكانات ذاتية للدفاع ومقاومة أية ضربات موجِعة، وامتصاص آثارها ولو كانت جارحة. الكاتب الذي يترقب أن تمكثَ أعمالُه في الذاكرة عليه أن يستعدّ للاتهامات في زمانه من كتّاب حانقين يستفزهم إنتاجُه. الافتراءاتُ ضريبةٌ باهظة يدفعها مَن يثابر على الكتابة المغايرة للمألوف شاء أم أبى. تنجم عن هذه الكتابة أقوالٌ تتضمن اتهاماتٍ وأحكامًا باطلة، لن تتوقف مثل هذه الشائعات مادمتَ تصغي لنداء عقلك، وتنفرد بصوتك الخاص. يقول ماريو فارغاس يوسا الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 2010: (ظهرت مقالة، لا أذكر عم كانت، أزعجتني لأنها احتوت على كثير من الإهانات

لي والأكاذيب عني. أريتها لنيرودا خلال الحفلة، فتنبأ لي: «لقد أصبحت مشهورًا، أريدك أن تعرف ماذا ينتظرك: كلما ازدادت شهرتك كلما ازداد الهجوم عليك، مقابل كل مديح ستتلقى إهانتين أو ثلاثًا. أنا نفسي لدي صندوق مليء بكل الإهانات والتشهيرات والادعاءات التي يمكن أن تطلق على رجل. لم يوفروا شيئًا: لص، منحرف، خائن، قواد... كل شيء! إذا أصبحت شهيرًا لابد لك أن تتحمل ذلك». قال نيرودا الحق؛ كان ما تنبأ به صحيح تمامًا. لدي الآن ليس فقط صندوق بل عدة حقائب مليئة بكل إهانة يمكن أن تخطر في بال إنسان)[1].

لو انشغلتَ بملاحقة الافتراءات يتوقف عملُك، ولن يكفَّ هؤلاء عن ملاحقتك مهما كتبتَ ونشرتَ لفضح أكاذيبهم. لا أتحدث عن النقد، الذي أتعلم منه، ويرشدني إلى شيءٍ من وهن كلماتي وثغرات أفكاري. أتحدث عن الذي يكذب ويفتري ويهرج، ويتهكم ويتكلم بسخرية مبتذلة، لا شك أنه يزعجني ويؤذيني، لكنه يعمل على ترويج ما أكتب. الكلامُ المتواصل عن أيِّ كاتبٍ وإن كان هجاءً يؤشر إلى قوةِ حضوره واشتدادِ تأثير كتاباته. يخرس هؤلاء عندما يفرض منجزُك حضورَه ولو بعد حين، وتتردّد أصداؤه لدى القراء الأذكياء، ويهتمّ به الخبراء.

لم يألف ذهنُ القارئ كتابةً تعتمد العقلَ مرجعية، ولا تنسى متطلبات الروح والقلب والعاطفة، ولا يعرف أن الكتابةَ العقلانية تتطلب الوعيَ بالاحتياجات العميقة المتنوعة الأخرى للإنسان بكليته. عقلُ الجمهور أقربُ لقبول الأضداد في كلّ ما يسمعه، يصعب عليه جدًا

(1) الياسين، نايف، «ترجمة وتحرير»، متعة المتخيل: حوارات مع كتاب عالميين، ص 245، 2009، دار التكوين، دمشق.

تصورُ حالة خارج الثنائيات المتعاندة. ذهنُ القارئ أُحاديٌّ مبرمجٌ على النفي والإثبات، لا يرى شيئًا خارجهما، مَن يرى العقلَ لا يرى القلبَ والعاطفة والخيال، مَن يرى القلب لا يرى العقل، وهكذا. في تطور الفكر البشري كلُّ فكرة لا تكرّر المألوفَ تحدث ضجةً لحظةَ اطلاع القراء عليها، وتتعرض للكثير من الهجاء والتهكم والازدراء. على مَن يعتنقها أو يكتبها أو يتحدث بها أن يدفع ضريبةً باهظة. بعد أن تصبح مألوفةً، يزعم بعضُهم أنه تبناها، ويدعي آخرون أنهم قالوا بها من قبل، وبعد زمن يمسي أتباعُها كثيرين، ومَن يرفضها يعدّ متخلفًا.

واحدةٌ من ضرائب الكتابة الموجعة أنها تضعك في مواجهة أقرب الأصدقاء ممن يظهرون أحيانًا مودةً مفتعلة، وتخلق لك نماذجَ من الأعداء، بعضهم شبحيون يتقنون فنونَ المراوغة والاختباء. أكثر الناس يفرحون بما يصيب غيرَهم من أذى، هذه طبيعة البشر لن نستطيع تبديلَها مهما فعلنا، وإن تظاهر كثيرٌ منهم مجاملةً بالاحتفاء بمنجزك. ما عدا الأبوين، وبعض الاخوان، وقليلًا جدًّا من الأقرباء والأصدقاء، فإن أكثرَ الناس بطبيعتهم يستفزّهم أيُّ مُنجَز يقدّمه غيرُهم، وتؤذيهم نجاحاتُهم، خاصة مَن يمتهنون مهنتَهم، ومَن هم أقرب إليهم.

بدأتْ ردودُ أفعالي حيالَ الشرِّ الأخلاقي الصادر عن الإنسان أخفّ وطأة، منذ أدركتُ سببَ مثل هذا السلوك الذي كان يصدمني سابقًا. القراءةُ المزمنة المتأملة الصبور، ومعاشرةُ الناس،كشفتْ لي شيئًا مما هو مختبئ داخل النفس الإنسانية، وأرتني ما يثير الذعرَ أحيانًا من صراعٍ للخير والشرّ في أعماق الإنسان.كنتُ أجهل تركيبَ الإنسان جهلًا تامًا، ولكن بعد دراسةِ الفلسفة ومواصلة مطالعةِ علوم النفس والمجتمع

الحديثة، والعيشِ في بلدان ومجتمعات متنوعة، أمسيتُ أعرف شيئًا عن هذه الطبيعة المركبة الغاطسة.كانت حياتي تسممها أحيانًا كلماتٌ عنيفة أتجرعها بمرارة، ومواقفُ لئيمة يجرحني فيها صديقٌ أحسبه مخلصًا، ولم أدرك آنذاك أن مثل هذا الإنسان تتحكم في مواقفه غيرةٌ مضاعفة، وعقدٌ تربوية، وأمراضٌ أخلاقية مزمنة، تسوقه كرهًا للحطّ من أيِّ منجز لأيِّ إنسان قريب أو بعيد منه. رأيتُ بعضَ الناس كأنه مدرّبٌ على العنف اللفظي، محترفٌ لجرح القلوب بكلمات كسهام. لفرط الحياء الموروث من بيئة القرية البدائية، وجهلي بنزعة الشرّ الأخلاقي العميقة داخل الإنسان،كنتُ سابقًا أبتلع كلماتِ أمثال هؤلاء كمن يبتلع السمّ وأصمت وهي تأكلني من الداخل.

أحاول إكراهَ نفسي على المواقف الأخلاقية مع هؤلاء، على الرغم من أن النفسَ تنفر بشدّةٍ ممن يواصل الإساءةَ إليها باستمرار، وهي تواصل الإحسانَ إليه. يحتاج الإنسانُ الإحسانَ لتكريس تربية الذات أخلاقيًا، مع أن ذلك شديدٌ على النفس. الإحسانُ إلى المُحسِن لا تسامي فيه، الإحسانُ إلى المسيء، والإصرارُ على العفو والغفران في التعامل معه، هو ما تسمو فيه الذاتُ وتتكامل.

بمشقةٍ بالغة، وبعدَ مخاضِ علاقات واسعة مع الناس المختلفين في أديانهم ومذاهبهم وهوياتهم، والعيشِ في مجتمعات متنوعة، تراكمتْ لدي خبراتٌ مكنتني من ممارسة أقل الطرق كلفةً لإدارة العلاقات الاجتماعية بالأخلاقيين والمزعجين. الأخلاقيون قليلون في الحياة، المسيئون تركوا جروحًا عميقة في داخلي، تجاوزتها بصعوبةٍ شديدة واستطعتُ أن أتعامل معهم بإحسانٍ ورفق، وتعلمتُ كيفيةَ العيش وإدارةَ

العلاقات بأقلّ ما يمكن من وجع. يبتهج مَن يعيشُ الرحمةَ بوصفها حالةً يتذوقها، والإحسانَ بوصفه مواقفَ نبيلة تصنعها أرواحٌ تجيد التغافلَ والصمتَ وكتمانَ الغضب. الإنسانُ تسعده الرحمةُ ومواقفُ الرفق والإحسان، بغضِّ النظر عن شخصية مَن يرفق به ويرحمه ويحسن إليه. وجدتُ لهذا النمط من السمو الأخلاقي تأثيرًا سحريًا في بناءِ الضمير وإيقاظه، واكتشافِ أن الأخلاق تحمي الإنسانَ من طيش نفسه ونزقها، مثلما تحميه من شرورِ غيره. ورأيتُ المواقفَ الشريرة تنقلب على فاعلها فتعاقبه.

تأتي آلامُنا الموجِعة غالبًا ممن نحسن إليهم وهم يسيئون إلينا، إثر التوهم بخيرية كلّ إنسان، والجهل الشامل بطبيعة البشر. تصير الحياة أكثرَ سكينة وأقلَّ ألماً حين نكتشف التركيبَ المعقد لشخصية كل إنسان وإن كان يبدو ذلك الإنسانُ لنا بسيطًا. شخصيةُ كلّ إنسان يتجاور فيها الخيرُ والشرّ، ويتغلّب فيها الشرُّ على الخير لحظةَ ينامُ الضميرُ الأخلاقي. شخصيةُ الإنسان الذكي أعمق وأشدّ تركيبًا من غيرها،كلّما كان العقلُ أعمق كان أدهى في المكر، وأكثرَ قدرة على حجب دوافعه وممارسة الأذى بمراوغة واحتيال، لا يحمي الناسَ من الإنسان الذكي إلا يقظةُ ضميره الأخلاقي. مازالتْ رحلتي في اكتشاف طبيعة الإنسان المذهلة مستمرّة، أعرف أن هذه الرحلةَ لن تصل مدياتِها القصوى حتى اليوم الأخير لحياتي.كلّما عرفتُ الإنسانَ أكثر عرفتُ اللّهَ أكثر، وأدركتُ الحاجةَ الأبدية إليه مادمتُ حيًّا، وأدركتُ الحاجةَ لحضور القيم الأخلاقية السامية، والقوانين العادلة وضرورة التطبيق الصارم لها على الجميع مهما كانت مواقعُهم الطبقية ومقاماتُهم الاجتماعية.

اتخذتُ قرارًا منذ سنوات طويلة، كان اتخاذُه شديدًا على نفسي، أن أمزّق رسائل الأذى وكتابات الازدراء والهجاء الورقية لحظة تصلني، وأمحو كلَّ ما يزعجني من رسائل الكترونية.كلُّ شيء يمكن أن يورث كراهيةً أتخلص منه عاجلًا، كي أحمي قلبي وأطهّره من الضغائن، فالقلبُ حسّاسٌ جدًا تمرضه الضغائنُ والأحقاد. رسائل الكلام القبيح والافتراء وسوء الأدب أمزقها لئلا تمزّق قلبي. أتحدث عن ضرورة حماية القلب من الكراهية، لا أدعو هنا إلى محبةٍ جزافية غير واقعية، لا يطيق الإنسانُ محبة مَن يعتدي عليه ويطعنه ويغدر به مرات متوالية. يتمكن الإنسانُ من أن يتغاضى ويقطع صلتَه بمثل هؤلاء، غير أنه لا يطيق أن يحبّ شخصًا مؤذيًا يتمادى ويواصل الاعتداءَ عليه. لا يطيق ذلك إلا إن كان إنسانًا استثنائيًا أو قديسًا، وأنا لم أكن يومًا ما إنسانًا استثنائيًا أو قديسًا.

المراجع

الكتب

1 ـ إيكو، أمبرتو، اعترافات روائي ناشئ، ترجمة: سعيد بنغراد، 2014، المركز الثقافي العربي، بيروت.

2 ـ باموق، أورهان، ألوان أخرى: قصة جديدة ومقالات، 2009، دار الشروق، القاهرة.

3 ـ بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

4 ـ الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، 1955، دار الجيل، بيروت.

5 ـ الجبوري، عدنان رشيد، معجم كتاب وأدباء ومؤلفي أم المعارك الخالدة 1990 ـ 1998، 2000، دار الكتب والوثائق، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد.

6 ـ الحزيمي، ناصر، حرق الكتب في التراث العربي، دار الجمل، بيروت.

7 ـ الرفاعي، عبد الجبار. الدين والكرامة الإنسانية، ط2، 2022، دار الرافدين ومركز دراسات فلسفة الدين، بغداد.

8 ـ الرفاعي، عبد الجبار، الدين والظمأ الأنطولوجي، ط4، 2023، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، دار الرافدين، بغداد.

9 ـ الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الشافعي، المنثور في القواعد الفقهية، حققه: تيسير فائق أحمد محمود، راجعه: د عبد الستار أبو غدة، ط2، 1985، وزارة الأوقاف الكويتية.

10 ـ سيد قطب. في ظلال القرآن. دار الشروق. القاهرة.

11 ـ سيد قطب. معالم في الطريق. دار الشروق. القاهرة.

12 ـ شتراوس، كلود ليفي، مداريات حزينة، ترجمة: محمد صبح، تقديم: د. فيصل دراج، دار كنعان ـ دمشق، ط1: 2003/ 2000.

13 ـ شوبنهاور، آرتور. العالم ارادة وتصورا. ترجمة وتقديم وشرح: سعيد توفيق. مراجعة: فاطمة مسعود. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2006.

14 ـ كاصد، عبد الكريم، رهان الستينات: نقد البيان الشعري، 2022، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد.

15 ـ مهدي، سامي، بريد القارات، 1989، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

16 ـ مهدي، سامي، شاعر في حياة: ذكريات وأطياف، 2017، دار ميزوبوتاميا، بغداد.

17 ـ ميريدث ماران، لماذا نكتب: عشرون من الكتّاب الناجحين يجيبون على أسئلة الكتابة، ترجمة: مجموعة من المترجمين، مراجعة وتحقيق: بثينة العيسى، ط3، 2013، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

18 ـ نجيب محفوظ، أتحدث إليكم، ط1، 1977، دار العودة، بيروت.

19 ـ هكذا تكلم كارل غوستاف يونغ، ترجمها وعلق على نصوصها: أحمد الزناتي، 2022، الكويت.

20 ـ الياسين، نايف «ترجمة وتحرير». متعة المتخيل: حوارات مع كتّاب عالميين. دمشق: دار التكوين، 2009.

21 ـ ياقوت الحموي، كتاب معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ترجمة أبو حيان التوحيدي، ط1، 1414 هـ ـ 1993 م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

22 ـ يوم من حياة كاتب: 59 كاتبًا يتحدثون عن روتين الكتابة، ترجمة: علي زين، ط 2، 2021، منشورات جدل، الكويت.

الدوريات والصحف

1 ـ جريدة الشرق الأوسط، 10 يونيو 2023 م/ 21 ذو القِعدة 1444 هـ.

2 ـ جريدة العالم «بغداد»، 12 ـ 10 ـ 2015.

3 ـ جريدة القدس العربي، الصادرة في 11 سبتمبر 2022.

4ـ حذرت من مخاطر كبيرة على البشرية... اليونسكو تدعو الدول إلى تطبيق توصيتها بشأن الذكاء الاصطناعي، قناة الجزيرة، مقال منشور بتاريخ 31/ 3/ 2023.

5ـ الذكاء الاصطناعي: تقرير يحذر من فقدان 300 مليون وظيفة في العالم مستقبلا، بي بي سي، في 28 مارس/ آذار 2023.

6ـ شبهه بأهمية اختراع الإنترنت... بيل غيتس يمدح «شات جي بي تي» والذكاء الاصطناعي، قناة الجزيرة، مقال منشور بتاريخ 10 ـ 2 ـ 2023.

7ـ مجلة نزوى «مسقط»، ع 80، 2014.

مكتبة سُر مَن قرأ

أنا قارئٌ قبل كلِّ شيء وبعد كلِّ شيء. لم تمنحني القراءةُ إجازةً ليومٍ واحدٍ في حياتي، لم أجد نفسي خارجَ أسرِ القراءة، وأظن أني لن أتوقفَ مادمتُ حيًا. أنفقتُ من سنوات عمري معها أكثرَ بكثيرٍ مما أنفقتُ برفقة البشر. بعد هذه الخبرة في القراءة أصبح القارئُ كاتبًا، غير أن القراءةَ مازالت تلازمه وتفرض حضورَها كأولويةٍ على الكتابة، لا تصمد مواعيدُ الكتابة وجداولها الزمنية لحظة يتّقد شغفُ القراءة. حين أضجر من الكتابةِ أستريحُ بالقراءة، وحين أفقدُ التركيزَ بعد ساعاتٍ من القراءة، لا يستفيق وعيي مجددًا إلا بالقراءة.

المؤلف

مكتبة
t.me/soramnqraa

د. عبدالجبار الرفاعي

مسرّات القراءة ومخاض الكتابة

فصل من سيرة كاتب

9 789922 691442
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com